٥

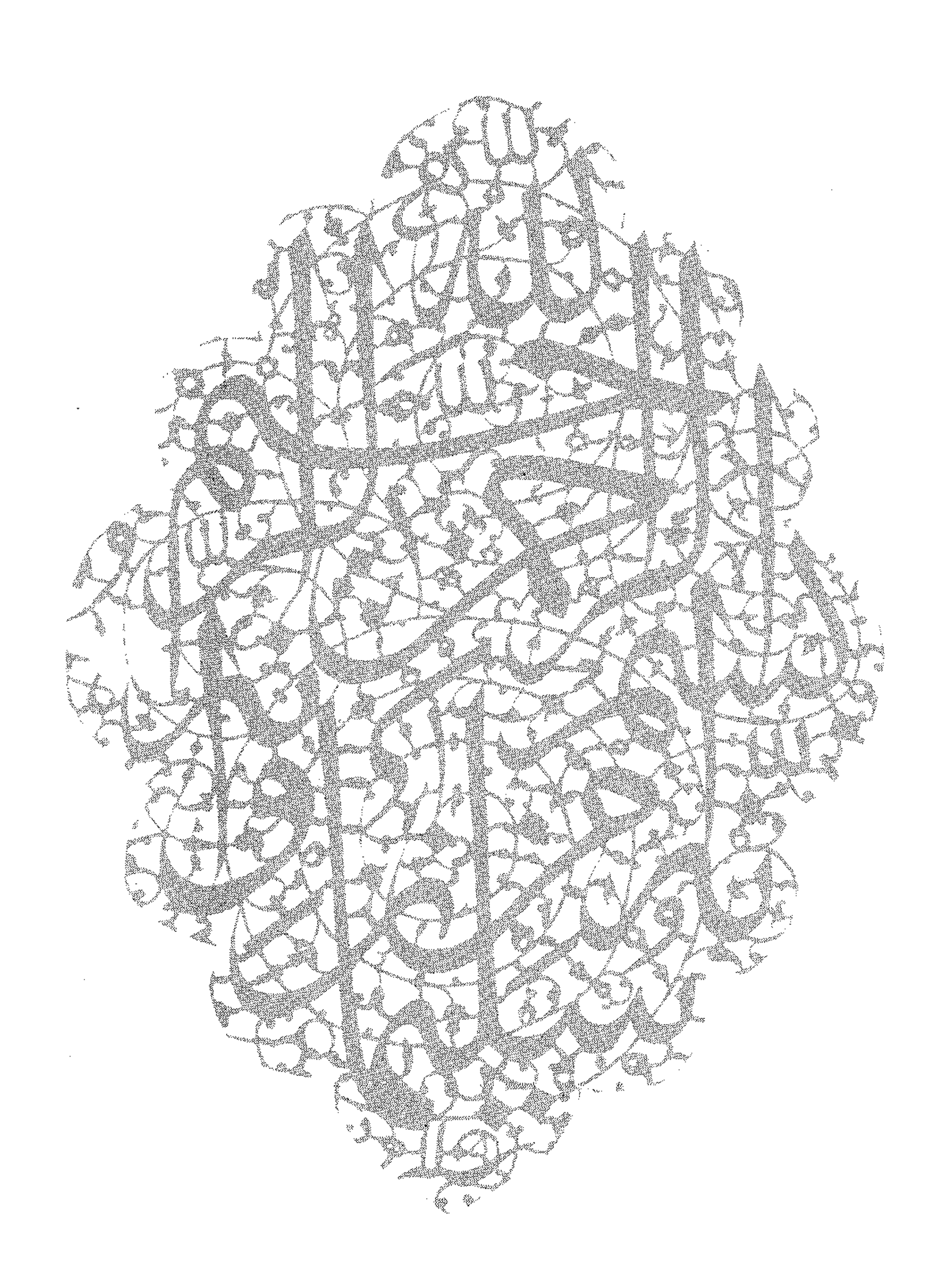


محمد متولي الشعراوي



ادارة الكتب والمكتبات

الاخراج الفنى : اشرف حسين



الفصل الأول

القرآن .. والنفس البشرية

إن كل ما يتعلق بالكون . . وآثار القرآن الكريم حول الوجود . . فقد اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . بما علم هو نفسه منها . . واكتفى بأن علم من وجد عنده استشرافاً للفهم . . ولكنه لم يشع ذلك ولم يعممه . . ذلك لأنه بمقياس العقل فى ذلك الوقت . . كانت توجد عقول كثيرة لا تتقبل مثل هذا الفهم . . ولا تستطيع أن تعقله . . بل كان مجرد طرح مثل هذه الموضوعات . . لا يفيد قضية نشر الدعوة للدين .

والقرآن الكريم لم يأت ليعمم أسرار الوجود . . ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحة . . وبأسرار الوجود مكتنزة . . وذلك حتى لا يكشف الحق تبارك وتعالى أسرار الوجود لأولئك الذين يجتهدون بعقولهم للوصول إلى أسرار الكون . . حينئذ يكون عطاء القرآن متساويا مع فهم العقول .

ويمر الزمن ويزداد التقدم البشرى . . ويتيح الله لعباده آيات من آياته فى الأرض . . ويكون عطاء القرآن متساويا مع قدرة العقول . . ذلك لأن للقرآن عطاء متجدد فى كل عصر . . وإلا لو أعطى الله كل ما عنده وقت نزول القرآن لجمد بعد ذلك . . ولم يكن له عطاء . . ولكن القرآن معجزة خالدة حتى يوم القيامة . . ومن هنا فإن يحمل عطاء لكل جيل . . يختلف عن العطاء الذى أعطاه للجيل الذى سبقه . . وهكذا . . ونحن مثلا لا نجد صحابيا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل عن غير التكليف . . فمثلا لم يسأل الرسول أحد عن « ألم » . . ألف لام ميم . . ولا عن « حم » . . مع أن الرسول كان يستقبل أناسا كثيرين يؤمنون بكتاب الله . . وأناسا كثيرين يكفرون بما أنزل الله . . وكان هؤلاء الكفار يريدون أن يقيموا الحجة ضد رسول الله وضد القرآن . . ولكننا لم نسمع عن واحد منهم . . وهم قوم بلاغة فصحاء يجيدون اللغة العربية بالموهبة . . لم نجد أحدا من الكفار سأل عن معنى ألف لام ميم . . أو « حم » . . أو « عسق » . . كيف يمر المكابر على ذلك مثل فواتح السور . . ولا يجد فيها ما يستطيع أن يواجه به رسول الله ويجادله . . وقد كانت هذه فرصة فى المجادلة .

ولاشك أن عدم استخدام الكفار لفواتح السور . . دليل على أنها لم تكن تناقض واقعا عندهم . . فلا المؤمنون سألوه عنها . . ولا الكافرون سألوه عنها . . مع أن الكافرين كانوا حريصين على أن يهاجموا رسول الله بأى شىء من الأشياء . . ولو أن هذه الحروف من فواتح السور كانت تخدمهم فى غرضهم وهو مهاجمة هذا الدين . . لقالوا للناس ذلك وجاهروا به .

القرآن يخاطب ملكات خفية فى النفس

والقرآن فيه من عطاء الله ما تحبه النفس البشرية ويستميلها . . إنه يخاطب ملكات خفية فى النفس لا نعرفها نحن . . ولكن يعرفها الله سبحانه وتعالى . . وهذه الملكات تنفعل حينما يقرأ القرآن . . ولذلك كان حرص الكفار على ألّا يسمع أحد القرآن حتى الذين لا يؤمنون بالله . . ذلك أن كل من يسمع القرآن سيجد له تأثيرا وحلاوة . . قد لا يستطيع أن يفسرها . . ولكنها تجذبه إلى الإيمان . . ومن هنا كان أئمة الكفر يخافون من سماع الكفار للقرآن أن يميلوا إليه ، ولو كان القرآن لا يعطى شيئا من هذا . . ولا يخاطب الملكات الخفية فى النفس . . لما اهتم الكفار بأن يسمع أحد القرآن أو لا يسمعه . . ولكن شعورهم بالقوة والقدرة للقرآن الكريم على النفس البشرية . . جعلهم لا يمنعون سماع القرآن فقط . . ويعتدون على من يتلوه فى الأماكن العامة . . بل قالوا . . فألغوا فيه . . ومعناها شوشروا عليه .

ولا يمكن أن يكون هذا هو مسلكهم وتلك طريقتهم . . إلا خوفا مما يفعله القرآن الكريم فى النفس البشرية . . كيف يستطيع أن يؤثر فيها . . وأن يجذب النفس الكافرة أو غير المؤمنة إلى الإيمان . . وتلك من معجزات القرآن الكريم التى يتميز بها عن أى كتاب فى هذا العالم .

لكل شىء أجل وميعاد

رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك القرآن . . فيما عدا التكليف بافعل

ولا تفعل . . تركه ليبين الزمن معجزاته . . فالقرآن كلام الله . . والكون هو خلق الله . . وفى القرآن آيات الله . . وآيات الكون تفسر لنا آيات القرآن الكريم فى الخلق . . فى خلق السموات والأرض . .وفى الليل والنهار . . والشمس والقمر . . وكل الآيات .

وهذه الآيات الأرضية لها ميلاد تكشف فيه للإنسان . . هذا الميلاد يأتى مع باحث عن آيات الله فى الأرض . . فيثيبه الله سبحانه وتعالى على جهده بكشف آية من الآيات الأرضية له . فإذا لم تصادف الآية التى جاء موعد ميلادها الكونى . . إذا لم تصادف هذه الآية عالما يبحث عنها . . كشفها الله سبحانه وتعالى لعالم أو مجتهد يبحث عن شىء آخر . . ولذلك فنحن نسمع كثيرا عن بحث بدأ بشىء وانتهى إلى شىء آخر . . ونسمع كثيرا عن أشياء يقول العلماء إنهم اكتشفوها بالصدفة . . والحقيقة أنه ليس هنا شىء إسمه الصدفة فى الكون . . ولكن لكل شىء أجل وميعاد . . وعندما يأتى الأجل يكشف الله عن آية من آياته فى الأرض بما نسميه نحن الصدفة . . وبما نراه كل يوم فى حياتنا . . بل إن الإنسان أحيانا يمرض ويذهب إلى كبار الأطباء . . فلا يعرفون الداء . . ثم يذهب إلى طبيب صغير فيكتشف الداء . . هل هذا الطبيب أكثر علما من أساتذته . . الحقيقة لا . . ولكن عندما جاء موعد الشفاء . . كشف الله أسباب المرض لأصغر طبيب . . مما حجبه عن أكبر أساتذة الطب . . وكل ما يعطيه الله لبعض خلقه . . هو أن يعطيهم القدرة بإستنباط سر من أسراره . . أو آية من آياته فى الكون . . عندما تكون العقول مستعدة . . والكون مهيأ لتقبل ما فى القرآن . . فبعض الناس يتساءل مثلا . . لماذا لم يذكر القرآن مثلا بكلام واضح أن الأرض كروية عندما نزل . . وأنا أقول لهم بالله كيف كان من الممكن أن تستقبل العقول البشرية مثل هذا الكلام أو تستوعبه . . خصوصا أنه يأتى فى أمر لا ينفع . . بل قد يضر . . وفى علم لا ينفع وجهل لا يضر . . فانتفاع الإنسان بالأرض وما عليها ليس مرهونا بأنه علم أنها كروية أو غير كروية . . وأستفيد من دوران بالليل أو النهار مثلا . . سواء علمت أن الأرض تدور حول نفسها أو لم

أعلم تلك الحقيقة ، إذا الاستفادة من بعض الأشياء لا تتوقف على معرفة أسرارها والكون موجود بكل خواصه ليفيد الناس الفائدة التى تمكنهم من الحياة فوق الأرض عرفوا كل خواصه . . أو عرفوا بعض هذه الخواص فقط . . فأنت مثلا تشعل المصباح بضغطة على زر الكهرباء . . وتنتفع بضوء الكهرباء . . ولو إنك لا تعرف أسرارها . . بل إن معظم الناس الذين يستخدمون الكهرباء ويستفيدون منها لا يعرفون أسرارها . . ولكن ذلك لا يمنعهم من الاستفادة من خواصها ، ولا يقلل من هذه الاستفادة . إذن فعدم علمنابكروية الأرض أو أنها تدور حول نفسها . . لا ينقص منا شيئا من فائدة هذه الأشياء . . بل نحن نستفيد من كل هذه الخواص . . رغم عدم علمنا بها . . ولو أن النبى صلى الله عليه وسلم . . تعرض لهذه المسائل تعرضا لا يتناسب مع مستوى العقول واستعدادها . . فإنه ربما يصرف بذلك العقول عن أساسيات القرآن . . وهى العبادة إلى الجدل والمجادلة . . حول ما يقوله . . ولا يستطيع العقل أن يستوعبه أو يفهمه فى ذلك الوقت .

كل عصر له عطاء

والحق سبحانه وتعالى قد ترك فى القرآن أشياء لوثبات العقول فى العلم . . حتى إذا استطاعت العقول أن تكشف شيئا فى الكون . . وجدت خيطا يربط بين آيات الله فى الكون . . وبين آيات القرآن الكريم . . واكتشف أن الأسرار الكونية التى وصلت إليها ليست علما جديدا . . ولكنه علم وضعه الله سبحانه وتعالى فى الأرض ساعة الخلق . . ثم بعد ذلك كشفه لعقول البشرية بعد ألوف السنين . . ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر كونيات القرآن لجمد القرآن . . لماذا . . لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفسر بعد أن يفسر رسول الله . . فيقف الأمر عند ذلك . . وتأتى المعطيات الجديدة . . والكشوف الجديدة . . فلا تجد فى القرآن عطاء له .

ولذلك فإن عدم تفسير رسول الله للكونيات فى القرآن . . هو تفسير لهذه

الكونيات . . لأنه ترك تفسير هذه الكونيات لعطاء العقول . . فكل من يستطيع أن يجتهد ويوفقه الله إلى آية من آيات الأرض يجد إشارة لها فى القرآن الكريم وهنا يكون المنع هو عين العطاء . . لأنه أتاح الفرصة لعطاء متجدد للقرآن الكريم . . إلى قيام الساعة . . وكل عصر له عطاء يؤكد معجزة القرآن .

قرآن . . وكتاب

وكلمة القرآن تقوم على تفهم الذى تقرؤه . . لأنه قرآن ، قرأ ، قرآنا . . مثل غفر غفرانا . . وهو علم نزل على النبى صلى الله عليه وسلم بقصد التحدى . . ويسميه الله كتابا . . إذن هو قرآن إذا لاحظت القراءة . . وهو كتاب إذا لاحظت الكتابة.والقراءة تستلزم حافظا يقرأ . . والكتابة لا تستلزم حافظا . .

فالإنسان حين يقرأ من الكتاب ليس محتاجا إلى الحفظ . . ولذلك فللقرآن وسيلتان من وسائل الحفظ . . يحفظ فى الصدور ويسجل فى الصحف . . حتى لا يضيع بين الحافظين .

وحينما كتب القرآن كان زيد لا يكتب شيئا إلا إذا وجد مكتوبا . . وهناك اثنان من الحافظين . . وهكذا اشتركا فى الكتابة والحفظ معا فى تدوين القرآن الكريم وجمعه . . وكان لا يكتفى بحافظ واحد بل بحافظين ، حتى إذا نسى أحدهما ذكره الآخر . . وكان هذا هو أساس جمع القرآن الكريم فى مصحف . . ولكن زيدا شذ عن القاعدة فى آية واحدة . . تلك الآية وجدها مكتوبة . . ولكن كان لها حافظ واحد . . ولكن انظروا إلى الخواطر الإيمانية . . حين يقذفها الله سبحانه وتعالى لاستكمال منهجه . . الآية وجدها زيد عند خزيمة . . ولم يكن هناك أحد يحفظها غيره . . ولكنها مدونة ومكتوبة . . حينئذ تذكر زيد كلمة لرسول الله فى قوله : (من شهد له خزيمة فحسبه) .

. . وكان الرسول قد أعطى خزيمة نصاب الشهادة وحده . . وهذا له حادثة

يجب أن نرويها . . فقد كان هناك رجل قد استدان منه رسول الله مالا . . فجاء الرجل وطالب بالمال . . فقال الرسول . . لقد أعطيتك المال . . فقال الرجل أريد شاهدا على ذلك . . ولم يكن أحد مع رسول الله حينما أعطى الرجل المال . . فجاء خزيمة بن ثابت وقال يا رسول الله أنا كنت موجودا وأنت تعطيه هذا الدين . . فانصرف صاحب الدين على الفور . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم التفت إلى خزيمة . . وقال له يا خزيمة أنت لم تكن موجودا حينما أديت الدين لصاحبه . . فكيف قلت إنك كنت معى . . ورد خزيمة . . يا رسول الله أنصدقك فى كل ما جئت به من أمور الدين موحى إليك من الله سبحانه وتعالى . . ثم أكذبك فى بضعة دراهم .

كان فكر خزيمة أن رسول الله إما أن يكون صادقا . . وإما أن يكون غير صادق . . ومادام هو صادقا فى المنهج . . فلابد أن يكون صادقا فى الدين . . وفى أنه رد هذاالدين لصاحبه . . ذلك أن عدم الصدق فى واقعة الدين يلغى الصدق فى كل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن هنا فلابد أن يكون رسول الله صادقا فى كل ما قاله . . وهذا المدين كاذب . . وهكذا تقدم خزيمة للشهادة . . على أساس المنطق الايمانى . . وهنا قال رسول الله من شهد له خزيمة فحسبه ويذلك تم تسجيل الآية .

إذن فالقرآن قرآن لأنه يقرأ . . وكتاب لأنه يكتب . . وإذا أردنا أن نعرف القرآن التعريف الحقيقى . . فهو يبدأ بالفاتحة . . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين . . » حتى آخر سورة « قل أعوذ برب الناس . . » .

وبعض الناس يقول إن القرآن كلام منزل على محمد صلى الله عليه وسلم . . بقصد التحدى والاعجاز بين منهج الله . . ولكنك لن تعرف ما هو القرآن إلا إذا قرأته من أوله لآخرة . . وهناك كتب نزلت من الله سبحانه وتعالى . فالتوراة

والانجيل وصحف موسى . . هى كلام الله . . ولكن هذه الكتب كان مقصودا بها المنهج فقط . . بينما القرآن الكريم يحمل المنهج والمعجزة الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فموسى عليه السلام كان منهجه التوراة . . ومعجزته العصا . . يضرب بها البحر فينفلق . . ويلقيها أمام السحرة . . فتتحول إلى حية تأكل ما يصنعون . . ويضرب بها الحجر فينبعث منه الماء . .

والانجيل هو منهج عيسى عليه السلام . . أما معجزاته فكانت إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله .

إذن فالمعجزة شيء . . والمنهج شيء آخر . . ولكن القرآن الكريم تميز بأنه المنهج والمعجزة معا . . لأن القرآن نزل على نية الثبات . . إلى أن تقوم الساعة . . ولذلك لابد أن يؤيد دائما بمعجزات . . وأن تكون المعجزة معه .

المنهج عين المعجزة

فالمنهج عين المعجزة . . حالة مفقودة فى الرسالات كلها . . ولكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم . . أمر موجود يمكن أن يشار إليه فى أى وقت من الأوقات . . ونظرة واحدة فيما قال الله سبحانه وتعالى عن كونيات الحياة للعقل البشرى فى القرن العشرين . . نجد أن القرآن يشير إليها . . لأن العمر فى الرسالة القرآنية إلى أن تقوم الساعة . . ومادام إلى أن تقوم الساعة . . فيظل معجزة حتى قيام هذه الساعة . . ولابد فى هذه الحالة أن يكون له عطاء يمثل إعجازا لكل عصر .

ولو جاء القرآن وأعطى إعجازه كله فى قرن مثلا من الزمان . . ويستقبل القرن الآخر بلا إعجاز . . وبذلك يجمد . . ولكن لكى تبقى المعجزة . . يجب أن يظل إعجاز القرآن الكريم إلى أن تقوم الساعة . .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى . . « سنريهم آياتنا فى الآفاق » . . هذه هى الآية الكونية . . « وفى أنفسهم » . . وهذه هى الآيات الطبية . . حتى يتبين لهم أنه الحق . . أى أن القرآن هو الحق . . وبذلك يمكن لنا أن نقول ان آيات الكون ستأتى موافقة لآيات القرآن الكريم . . حتى يتبين لهم أنه الحق . . وكلمة « سنريهم آياتنا » توحى لنا أن الله سبحانه وتعالى سيعطينا آيات الكون وأسراره . . ويمكن أن يعطيها للمؤمنين أو لغير المؤمنين . . ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى من آيات الكون للمؤمنين . . فبرع المسلمون ووضعوا أساس العلم الحديث للعالم . . ثم أعطى لغير المؤمنين . . وذلك يفسر قوله سبحانه وتعالى حتى يتبين لهم أنه الحق . . أى أن الذى أعطاهم الله آيات الكون فى وقت من الأوقات . . منكرين للقرآن كحق . . لأن المؤمن يفهم أن القرآن هو الحق . . وهو ليس فى حاجة إلى بيان . . أما غير المؤمن فهو الذى يشك فى هذا الدين . . وفى هذه الحالة يكشف له الله آية تبين له أنه الحق ، والقرآن حين يتحدى . . يتحدى فى أمر معجز . . وأنت لا تتحدى إنسانا كسيحا فى المشى . . ولا تتحدى إنسانا ضعيفا فى حمل الأثقال . . هنا التحدى غير موجود .

ولكنك إذا أردت أن تتحدى . . فيجب أن يكون هذا التحدى فى شىء تنبغ فيه . . ولذلك جاء القرآن وتحدى العرب فى البلاغة والكلمة . . وكان العرب متفوقين فيها . . وبذلك حين غلبهم القرآن . . كان التحدى فيه حجة . . فقد جاء من نوع ما نبغوا فيه . . لأنه لو كان غير ذلك . . ولو جاء القرآن لقوم لا يحسنون البلاغة . . وليس منهجهم بلوغ الكلمة . . يكون حينئذ ليس معجزا . . ولقد كان العرب يتفوقون بالأداء الطيب المعجز شعرا ونثرا وخطابة .

وجاء رسول الله صلى الله عليه سلم . . كيف كان موقفه فى هذا كله . . لقد عاش بينهم أربعين سنة . . لم ينظم شعراً . . ولم يلق فيها خطاباً . . ولم يكن من نبغاء البلاغة . . وما عرف عنه إلا كلام عادى قبل الرسالة . . وليس له علاقة لفنون الشعر والخطابة . . ولا هو متفوق فيها . . ولا يقوم بما يقوم به فطاحل

البشر والأدب من تحد وقصائد إلى غير ذلك . . والمعجزة هنا أننا حين نتحدى أولئك الذين نبغوا فى فن البلاغة . . نتحداهم بإنسان لم يشتهر عنه أنه قال شيئا من البلاغة . . حتى نعرف أن هذا الذى يقول ليس من عنده . . والمواهب الموجودة فى الشعر . . تظهر فى سن مبكرة . . من العشرين الى الثلاثين . . وإن كانت هناك مواهب تظهر عند الصغر . . ولكن النبوغ والعبقرية لا تأتيان إلا متأخراً فى سن الأربعين . . وعندما يفاجأ العرب والعالم . . بأن محمد بن عبدالله . . الأمى الذى لم يعرف عنه أنه خطب أو قال شعرا . . أو كان من رواد البلاغة . . عندما يقول كلاماً معجزاً لأصحاب المواهب . .نقول فى هذه الحالة . . أن هذا ليس من عنده . . لأنه ليس من المعقول أن يكون عنده هذه العبقرية ثم يكتمها إلى سن الأربعين . . ولكن المعقول أنها جاءت له من الله . . ولذلك عندما يعرض القرآن للمتشككين يقول :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ ﴾

(سورة يونس)

وهكذا يقول رسول الله أنه ليس هو قائل هذا القرآن حتى يبدله . . ثم تمضى الآية الكريمة :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

هنا بلاغة وإعجاز فى الرد . . فرسول الله يرفض أن ينسب الكمال لنفسه . . والناس بطبعها تدعى الكمال لنفسها . . وتنسب للنفس ما لم تفعله . . كل واحد منا يريد أن يثبت أنه عبقرى . . وأنه عالم . . وأنه فى فنه مسيطر . . وأنه

لا يوجد من يفهم مشاكل الدنيا كلها إلا هو . . وهو فى سبيل ذلك مستعد أن يسرق جهد غيره وينسبه إلى نفسه . . أى أن الطبيعة البشرية تحاول أن تدعى الكمال ولو كذبا . . ولكن هؤلاء الناس يريدون أن يعطوا الكمال لرسول الله . . فينسبوا إليه أنه هو الذى قال هذا القرآن . . وبدلا من أن ينساق رسول الله وراء هذا الكمال الذى يحاولون أن ينسبوه إليه . . يوحى له الله بأن يرد عليهم ويقول لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به . . ثم بعد ذلك يوحى الله إليه بالحقيقة أو الدليل يرد عليهم فيقول . . فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون . . أى أننى عشت معكم أربعين سنة قبل أن يوحى إلى . . ولم أحاول حتى مجرد الدخول فى مزايدات البلاغة والشعر والخطابة . . ولم يشتهر عنى ذلك . . بل كنت أقول كلاماً عادياً . . فإذا كان هذا هو خلقى وطبعى كما تعرفون . . فيجب أن تعرفوا أن الكلام المعجز لكم . . والذى أتلوه عليكم هووحى من الله سبحانه وتعالى وهذا كلامه . . فإن كنت أحسن فن الكتابة والخطابة فربما ساوركم الشك . . ولكنى كنت أقول كلاماً عادياً . . ولم أحاول أن أدخل معكم فى أى من مسابقات البلاغة والخطابة . . ولا أن أعجزكم بقولى . . فعندما يأتى هذا القول المعجز يكون من الله سبحانه وتعالى .

لا يعرفون . . كيف يكذبون

ثم نجد شيئاً هاماً . . رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو قرآناً هو كلام الله . . ويأتى بالحديث القدسى . . ثم يأتى بالحديث النبوى . . كم لوناً من الكلام . . ثلاثة . . قرآن . . وحديث . . وحديث قدسى . . والثلاثة مختلفة فى الأسلوب والبلاغة . . بحيث عندما يقرأ أحدهم قول القرآن يقول هذا قرآن . . وإذ تلا أحد عليك الثانى يقول هذا حديث قدسى . . وإذا تلا عليك الثالث تقول هذا حديث نبوى . . وآتونى بأى عبقرى من عباقرة البلاغة . . ليستطيع أن يكون له ثلاثة أساليب . . لكل أسلوب طابع خاص مميز . . لا يشترك فيه مع غيره .

لا يمكن أن يكون لشخص واحد ثلاث شخصيات أسلوبية .. بل لكل واحد شخصية أسلوبية واحدة .. وإذا حاول أن يخرج عنها فلابد أن تغلبه .. وتكون هذه الفروق الهائلة بين الأساليب الثلاثة هى دليلا على أنها من عند الله .. وبذلك يكون التشخيص الأسلوبى فيما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بالمنهج الذى هو القرآن .. ثم الحديث القدسى .. ثم بالحديث النبوي .. أكبر دليل على صدق الرسالة .. والحق سبحانه وتعالى حين أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم .. وفاجأ الناس بهذا البيان .. ذهلوا .. ولم يستطيعوا أن يردوا .. كانوا يريدون تكذيب القرآن .. ولكنهم لا يعرفون كيف يكذبونه قالوا هذا ساحر .. وكان الرد ببساطة إن السحر ليست له إرادة مع الساحر .. بحيث لا يستطيع أن يدفع المسحور عن نفسه .. ولذلك نقول لهم مادام محمد ساحراً وسحر الناس .. لماذا لم يسحركم أنتم حتى تؤمنوا به .. لو كان ساحراً ما كنتم امتنعتم عليه وكان سحركم كما سحر الآخرين .. إنما كونكم حتى الآن تجلسون تردون وتجادلون .. معناه أنه لم يسحركم .. وهذا دليل على أنه ليس بساحر .

وقالوا مجنون .. ونحن نقول لهم إن عمل المجنون هو عمل بغير رتابة .. بمعنى انك لا تستطيع أن تتنبأ بما سيفعله إنسان فاقد العقل .

بل أنه قد يكون جالساً معك يتحدث .. وبعد دقيقة واحدة يضربك أو يؤذيك أو يقتلك .. رتابة العقل هنا غير موجودة .. وغير العاقل لا يمكن أن نقول ماذا سيفعل فى الدقيقة التالية .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان على خلق عظيم .. بشهادة الله سبحانه وتعالى .. وبشهادتكم أنتم .. فقد كنتم تلقبونه بالأمين .. وتأتمنونه على أموالكم وكل ما له قيمة .. فكيف يمكن أن تأتمنوا إنساناً بلا عقل .. إذن فأنتم تردون على أنفسكم .

ولا يمكن أن تأتى المواهب للإنسان فجأة .. فأنت إذا أردت أن تتعلم شيئاً .. فلابد أن تبدأ بالتجربة والخطأ .. فإذا أردت أن تقود سيارة مثلاً .. فلابد أن يأتى إنسان يجيد قيادة السيارة آلياً .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلمه أحد البلاغة .. ولم يتدرب عليها .. وكان خلقه الحق والصدق .. ولقبه الأمين .. والسلوك هو انطباع النفس على خلق معين انطباعاً ييسر الحركة فيه بدون فكر .. فيقال فلان خلقه الكرم .. أى أنه كريم حتى ولو كان يملك القليل .. خلقه الصدق .. أى أنه صادق حتى على نفسه .. خلقه الأمانة .. أى أنه أمين مهما بلغت قيمة ما تأتمنونه عليه .. لا يطمع ولو كان فقيراً وأعطيته مبلغاً هائلاً من المال .. ورسول الله عرف بهذه الطباع كلها وعرف أنه على خلق عظيم .

ولقد تعب الكفار من أن كل ما حاربوا به هذا الدين .. أظهر الله كذبه وبطلانه .. ولذلك قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء .. وكان من المنطق أن يقولوا إذا كان هذا الحق من عندك فاهدنا له .. إنما هذا دليل على كراهيتهم للحق وتبنيهم للباطل .. وقالوا « لولا نزل القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم » ..

لأنهم يريدون واحداً منهم .. يأمنونه فى أن يكون معهم .. ولو كان هذا ضد الحق .. فالاعتراض هنا على أنه ليس من هؤلاء الأغنياء .. الذين يمكن أن يتعاطفوا معهم أو يمكن أن يتبعوهم دون أن يحسوا بأن شيئا تغير .. وهكذا كان القرآن عندما يقرأ يزداد المؤمنون إيماناً .. أما الكفار فكانوا يحاولون أن يجدوا فيه منافذ أومآخذ فلا يجدون إلى أن انتهى الأمر وآمنوا .

والحق سبحانه وتعالى حين يعطى رسله منهجاً .. والحق غيب .. ويكون عطاؤه غيباً .. ولذلك يحدد عطاء المنهج للرسل .. « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً » .. طبيعة التكوين البشرى لا يمكن أن تستقبل من الله مباشرة .. والوحى معناه الاعلام بشىء فى خفاء .

ولكن نبسط هذا المعنى . . لو أنه جاءك ضيف ثقيل . . لا تريد أن تقابله . . تتفق مع خادمك على إشارة معينة تعطيها له . . فيعلم ويتخلص من هذا الضيف . . ويكون فى هذه الحالة الاعلان قد تم بطريقة خفية لا يفهمها إلا من أراد أن يقول . . ومن استقبل هذا القول بإشارة خفية لا يفهمها إلا من أراد أن يقول . . ومن استقبل هذا القول بإشارة خفية . . والوحى مادام إعلاماً بخفاء . . فإنه يقتضى موحياً . . وموحى إليه . . والموحى هو الله سبحانه وتعالى . . يوحى للملائكة . . ويوحى للنحل . . ويوحى لغير أنبيائه . . كلم موسى مثلا حين أوحى إليه أن يلقى موسى عصاه فى البحر . . والشياطين يوحون إلى أوليائهم ولكن حين يطلق اسم الوحى كعلم . . يكون إعلاماً من الله لرسوله . . والله سبحانه وتعالى حين يكلم بشراً ويوحى إليه . . لابد من ثلاث طرق :

. . « **ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب** » . . كما كلم الله موسى عليه السلام . . أو يرسل رسولاً كجبريل عليه السلام . . وبذلك تكون كلمة الوحى الأولى مطلق الهام . . « **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً** » يعنى إلهاما . . الله يقذف فى قلبه ما يشاء ويعلمه به . . ولكن الخواطر فى القلب كثيرة . . فكيف نعرف أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى هذه النفس . . حين يوحى الله إلى بشر . . نجد التسليم المطلق فى ملكات النفس . . ولا نجد أية معارضة . . ولذلك فإنه أحياناً يأتى وحى من الله بأمر منا مناقض للعقل . . ومع ذلك نقوم به ونتبعه . . **مثلا أم موسى قال لها الله سبحانه وتعالى « فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم »** . .

ولو انك ذهبت إلى أى إنسان يخاف على ابنه من خطر وقلت له ألقه فى البحر . . لاتهمك بالجنون . . ولم يتقبل كلامك . . لأنك فى هذه الحالة تريد أن تنجى الابن من موت مظنون إلى موت محقق . . فالإبن إذا كان يتعرض للخطر . . فإنك تأخذه وتخفيه فى مكان آخر . . أو تهاجر به من دولة إلى أخرى . . أو تقوم بإخفائه بحيث لا يظهر أبداً . . ولكن أن تلقى طفلاً بلا حول

ولا قوة فى البحر . . فأنت تحكم عليه بموت محقق . . لأنك تقذف به إلى أمواج وتيارات قد تقتله . . فإذا نجا من تيارات البحر فهناك الطيور الجارحة . . وهذا طفل صغير لا يستطيع الدفاع عن نفسه . . فإذا نجا من الطيور كانت له الريح . . تستطيع أن تقلب الصندوق الصغير الذى يرقد فيه . . فإذا نجا من الريح كانت له الأمطار تنزل فتملأ الصندوق بالماء فيغرق . . وهكذا إذا نجا من واحدة لقى مصرعه فى الثانية . . فأنت فى هذه الحالة لن تنجيه . . ولكنك توصله لموت محقق . .

ولقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا من ذلك . . أنه مهما حفت بنا الأخطار . . فلا نحس أن هذا غضب من الله . . فقد يكون فى هذا الطريق المغلق طريق نجاة . . رسمه الله سبحانه وتعالى . . فلا يدخل اليأس إلى نفوسنا أبداً . . ولا نحس ولا نعتقد أننا انتهينا . . ولكن الذى نريد أن نصل إليه . . هو أنه حين أوحى الله إلى أم موسى أن تلقيه فى البحر أوالنهر . . قامت أم موسى بوضع طفلها فى صندوق . . وألقته فى الماء دون أن يكون فى نفسها أى معارض يمنع هذا رغم أن العقل يرفضه . . وهذه هى سمات الوحى فى مخاطبته لملكات البشر . . الله سبحانه وتعالى حين أوحى إلى أم موسى أن ألقيه فى اليم . . جعلها تسمع أمره إلى الماء . . فليلقه اليم بالساحل . والأمر هنا قد صدر من الله سبحانه وتعالى للماء . . وعرفت أم موسى أن اليم سيلقيه فى الساحل . . فأرسلت أخته تتبعه لترى إلى أين سيذهب . . وفى أى مكان سيلقيه الماء .

ساعة الوحى :

والرسالات السماوية نجد فيها الوحى بالخاطر . . والكلام من وراء حجاب . . أو إرسال رسول فى السماء هو جبريل عليه السلام . . كل أعمال التكليف تصدر بالطرق الثلاثة . . ولكن القرآن الكريم لم يأت إلا بطريق واحد . . فلم يأت القرآن نفثاً فى الخاطر . . ولم يأت القرآن كلاماً من وراء

حجاب .. وإنما جاء بواسطة إرسال رسول من الملائكة .

ويجيء الرسول بصلصلة الجرس تنبيهاً بأن الوحى قد جاء .. ثم بعد ذلك يسمعون حول رأس الرسول دوياً .. إذن هناك تغيير كيماوى يحدث .. ومن هنا لا يمكن أن يلتبس الأمر مادام يتم بهذه الطريقة .. وإرسال رسول هو جبريل عليه السلام بالوحى .. يجعل نفس محمد تطمئن على أن المسألة ليست فيها شك .. بل إن كيماويات الجسد تتغير .. فيقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كان يجلس بجواره أحد الصحابة .. وحينما جاءه الوحى لامست ركبته الشريفة الصحابى .. فأحس بها كأنها جبل .. كل هذه العمليات تتم دليلاً على أن الوحى قد جاء .. وترك ثقل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الأمر .. فقد كان يعانى إرهاقاً شديدا ساعة الوحى .. ثم بعد ذلك بعض الوقت .. فاشتاق النبى إليه .. وهذا الشوق كان يعطيه طاقة لتحمل الوحى .. وهو المزج بين الطبيعة البشرية وطبيعة المزج .

ولذلك قال سبحانه وتعالى « **ورفعنا عنك وزرك الذى انقض ظهرك** » ..

أى أننا خففنا عليك ما كان يحدث عند امتزاج الوحى بك .. وقد يأتى الوحى بسورة طويلة ويقوم الصحابة بكتابتها .. ثم يأتى رسول الله يقرؤها فى الصلاة .. وتكون طبق ما نطق به .. ائتونى بإنسان يقول كلاماً من عنده .. وبعد سنوات يردد نفس الكلام بنفس الألفاظ .. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأنه وحى يوحى ولأنه كلام الله .. يظل فى قلبه طوال حياته .

مصدقاً لقول الله سبحانه وتعالى « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » ..

يأتى بعض الناس فى محاولة للتشكيك فى القرآن الكريم .. ويقول .. الإنسان قد استطاع الوصول إلى القمر .. وبعد ذلك نفد من أقطار السموات .. وهذا الكلام لا يتفق مع العقل .. ولا المنطق .. فالمجموعة

الشمسية كلها هى ضاحية من ضواحى الأرض . . وما بين الشمس أو المجموعة والأرض ٨ دقائق ضوئية . . ولكن هناك من الكواكب بينى وبينها مليون سنة ضوئية . . وكل هذه دون السماء الدنيا . .

وهكذا يظهر أن معنى قول الله سبحانه وتعالى « **وإنا لموسعون** » . . أى أنه فضاء ولا نهاية .

وإذا حسبنا الثانية الضوئية نجد أنها ٣٠٠ ألف كيلو متر . . فإذا ضربنا ٣٠٠ ألف × ٦٠ وهى عدد الثوانى فى الدقيقة . . ثم نضربها فى ٦٠ وهى عدد الدقائق فى الساعة الواحدة . . ثم فى ٢٤ وهى عدد الساعات فى اليوم ثم فى ٣٦٥ وهى عدد الأيام فى السنة ، ثم ضربنا كل هذا فى مليون وهو عدد السنوات الضوئية بيننا وبين بعض الكواكب . . نحس بالبعد اللانهائى فى السماء الدنيا وحدها . . وهو بعد تعجز عن إدراكه العقول . .

فعندما يأتى الله سبحانه وتعالى ويقول :

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

يقول بعض الناس إن هذا هو سلطان العلم الذى استطاع أن يقودنا إلى القمر . . ولست أدرى ما هى العلاقة بين السماء والقمر . .

والله سبحانه وتعالى يقول « **أقطار السموات والأرض** » . .

والقمر ضاحية من ضواحى الأرض . . ولا دخل له بالسماء . . ولا يحتاج إلى سلطان . .

ولو كان الله سبحانه وتعالى . . يقصد سلطان العلم لما قال بعدها « **يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران** » . .

ولكن لماذا جاء الله فى هذه السورة بكلمة سلطان . . لو أن كلمة بسلطان لم ترد فى القرآن الكريم . . لقلنا أن حديث الاسراء والمعراج ربما كان حديثاً فقط . . لماذا ؟ . . لأن النبى صلى الله عليه وسلم صعد إلى السماء . . والقرآن يقول إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا . . ولا تنفذون (ثم يسكت) ولا يقول إلا بسلطان . . وفى هذه الحالة يكون قد حكم الله . . لا أحد ينفذ من أقطار السموات والأرض . . وكلمة بسلطان . . معناها من الله سبحانه وتعالى . . وتكون هذه الآية تأكيداً لصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإسراء والمعراج . . ولو لم يأت لأثارت تساؤلات كثيرة . .

إذن هذه الآية لا علاقة لها بصعود الإنسان إلى القمر . . لأن القمر ليست له علاقة بحكاية السماء . . أين القمر من السماء ؟ . . أين القمر من الكواكب التى تفصلها عنا ملايين السنين الضوئية . . التى لا يستطيع رقم أن يصل إلى حسابها . . فإذا قال إنسان إنه سيرسل بشراً إلى السماء نقول له إن عمر هذا الإنسان سينتهى قبل أن يصعد إلى السماء . . ذلك أنه محتاج قبل أن يجتاز السماء الدنيا إلى ملايين السنين . . ومن هنا يجب أن نلاحظ أن هناك فرقاً بين حقيقة وبين ظل . . وبين جهل . . وبين وهم . . ولا نربط القرآن إلا بالحقيقة العلمية الثابتة . . لأننا لو ربطناه بغير ذلك . . لتذبذب القرآن .

وحكاية ربط النظريات العلمية بالقرآن محتاجة إلى وقفة . . ذلك أن عدداً كبيراً من النظريات العلمية يثبت خطؤها بعد فترة من الوقت . . ولذلك لا يجب أن نربط القرآن إلا بالعلم الذى عليه دليل الحقيقة الثابتة . . أما ما عدا ذلك من جهل وتقليد وشك وظن . . فإياك أن تربط القرآن بواحدة من هذه . . لأنك فى هذه الحالة تسىء إلى كتاب الله بنية حسنة . . وأنت تربطه بآيات الكون .

. . والذى أريد أن أقوله . . إن القرآن هو المهيمن . . وهو الصادق . . ولو جاءت نظرية علمية تناقض القرآن الكريم . . فإننا نؤمن أن القرآن على حق . .

وهذه النظرية العلمية باطلة كاذبة .. لماذا ..؟ لأن القرآن كلام الله .. والنظريات العلمية هى نظريات البشر .. وكلمات الله أصدق إذا ناقض قول بشر .. ولذلك فإن القرآن مهيمن كلامه .. لاشك فيه .. فكلام الله يقين .. ولا عيب أن تتناقض وهما نظرية مع القرآن الكريم .. لأن التناقض لا يحدث هنا فى أمر تكليفى بافعل ولا تفعل .. وهو الأساس فى كتاب الله .. فنحن بعد أن عرفنا أن الأرض كرة .. والأرض تدور حول نفسها .. ما الذى زاد فى التكليف ..؟ لا شىء .. والذى لم يعرف هذه الحقيقة من الأميين .. أو الذين لم يحصلوا العلم .. ما الذى حدث لهم .. فى أمور حياتهم اليومية وعلاقتهم بالله .. لا شىء .. إذن فهو علم لا ينفع .. وجهل لا يضر .. إذن فالأمور المقصورة فى كونيات الكون .. والكونيات التى تعرض لها القرآن .. دعها حتى تنضج النضج الذى يمكنك بعد ذلك عن يقين من أن تربط واحدة منها بالأخرى ..

وهذا مصداقاً للآية الكريمة ..

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(سورة فصلت)

ولنضرب لذلك مثلا .. كنا ندرس ونحن فى المدرسة أن الأرض كروية .. وكنا ندرس ذلك بأدلة يرويها العلم .. ولكن العلم الآن ليس محتاجاً إلى أدلة .. لأن الإنسان رأى الأرض وهى كرة .. وليس مع العين دليل آخر .. ثم عرفنا أن الغلاف حول الأرض .. وأنه يتبع الأرض ويدور بها .. إذن الغلاف الجوى جزء من الأرض يتبعها ويدور معها .. والذى يطير فى الغلاف الجوى بالطائرة .. لا نقول أنه خرج من الأرض .. بل إنه يطير مع الأرض ..

وكنا نقرأ قديماً قوله الله سبحانه وتعالى « **قل سيروا فى الأرض** » .. فنأخذها على أن الأرض ظرف للسير .. ولكن بعد أن عرفنا أن الغلاف

الجوى جزء من الأرض .. اتضح لنا أننا لا نمشى فوق الأرض أو على الأرض .. ولكننا نمشى فى الأرض .. أى بين الغلاف الجوى والقشرة الأرضية .. وإلا لو كنا نمشى على الأرض لوجب أن نمشى فوق الغلاف الجوى .. ولو كنا أجهدنا الأسلوب لنفهم فى الماضى .. ما عرفنا المعنى .. ولكن الحقيقة الكونية التى كشفها الله لعباده .. قربت لنا المعنى .. وجعلتنا أكثر فهماً له ..

فعندما يقول الله « **سيروا فى الأرض** » .. كان يقصد أن الغلاف الجوى جزء من الأرض لا ينفصل عنها .. وأننى حينما أسير .. أسير فوق القشرة الأرضية وتحت الغلاف الجوى .. إذن فأنا أسير فى الأرض .. وليس على الأرض .

قدرة الفاعل

ويقول الله سبحانه وتعالى : « **وترى الجبال تحسبها جامدة . وهى تمر مر السحاب .. صنع الله الذى اتقن كل شىء** » ..

كان بعض الناس يفسر هذه الآية على أساس أنها فى الآخرة .. ولكن ليس فى الآخرة حسبان .. بل فى الآخر يقين .. أما الحسبان فهو فى الدنيا .. لأن هناك فى حياتنا الدنيا أشياء أخفيت عنا .. وأشياء لا نراها ..

وقول الله « **صنع الله الذى أتقن كل شىء** » ..

يدل على أن القضية غريبة عن العقل .. لأنك حين تقرأ الآية وتستغربها .. ولا تستطيع أن تقبله عقلياً .. يقول لك الله سبحانه وتعالى إن هذا من صنع الله .. حينئذ أصبحت حقيقة كونية .. وعليها دليل وهو قول الله سبحانه وتعالى .. وحينما يقول الله .. فإننا ننسب الفعل إلى الفاعل .. حين نتحدث ونقول شيئاً لابد أن أنسبه لقدرتك .. حتى أعرف هل تستطيع أن تقوم به أم لا .. فإذا كنت ضعيفاً وقلت أنك هزمت بطل العالم فى رفع الأثقال .. حينئذ

أستغرب هذه الحقيقة . . وأشك فيها لأن قدرتك لا تتناسب مع الفعل . . أما إذا قال الله سبحانه وتعالى . . فقدرته تتناسب مع كل شيء فى الدنيا . . ولذلك فإذا قال الله فهو يقين . . لأنه لا قادر غيره . . ولا قوى سواه . . وتلاحظ هنا أن الله تبارك وتعالى قد قال « تمر مر السحاب » . . كون أن الجبال التى نحسبها جامدة تمر . . هذا دليل على أن الأرض تدور . ولا يمكن أن يحدث المرور هنا إلا إذا كانت الأرض تدور حول نفسها . . ولكن لماذا قال الله سبحانه وتعالى « مر السحاب » . . لأن السحاب ليس مروره ذاتياً . . أى أنه لا يملك قوة ذاتية للحركة وإنما تدفعه الريح . . فكأن الجبال لا تملك هى الأخرى قوة ذاتية للحركة . . ومادامت تمر مر السحاب . . فإنما هناك قوة تدفعها وهى تبعيتها لحركة الأرض . . وعندما نسمع فى القرآن كلمة « تحسبها » . . نعلم أن هذا يخص أمور الدنيا . . فلا حسبان فى الآخرة وإنما يقين . . وإنما الحسبان فى الدنيا لأنها هى التى فيها أشياء مخفاه عنا ولا نراها . . وبعض الناس يتساءل إذا كانت هذه الجبال وهى عالية تمر هذا المر . . أو تتبع الأرض فى حركتها فلابد أن تنفصل عن الأرض . . ولكن الله سبحانه وتعالى خلق توازناً فى الأرض . .

فالبروز العالى يتبعه عمق كبير . . وهناك تناسب فى الكتل . . وهذا التناسب هو الذى يحفظ توازن الأرض . . وأنت إذا أخذت قطعة من الأرض إلى مركز ما . . وأخذت قطعة من القطاع الثانى لابد أن تكون متساوية فى الوزن . . وإلا . . لو أقمت عمارة فى هذه الحالة . . فإنها تقع أو تسقط . . ولكنك وأنت تقيم عمارة فأنت تأخذ الثقل وهو الطوب ولوازم البناء فى مكان آخر . . وهنا فأنت لم تخل بالتوازن . . وكل لفتة فى القرآن الكريم إلى آيات الكون . . لا يجب أن تجعلنا متسرعين فى تفسير هذه الآيات قبل أن يظهرها الله سبحانه وتعالى . . وكل سر فى الكون له ميلاد . . ومهما اجتهد الانسان فإنه لا يكشف له السر إلا إذا جاءت لحظة ميلاده . . ولذلك ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات الكونية فى القرآن الكريم حتى يظهرها الله للعقول . . وقال سيدنا عمر . . دعوا هذه الأشياء حتى يأتى إذن الله لعقول أن تجدها .

فيه شفاء ورحمة

وعلى أية حال .. فإن هذه الأشياء لا تدخل فى المنهج .. ومن هنا فإنها لا تؤثر على حياة الإنسان .. ولا على انتفاعه بالظواهر الكونية .. فالشمس ينتفع بها من يعرف حقيقتها .. ومن لا يعرف .. وكذلك كل المظاهر الكونية .. وهنا يكون التعب فى علم لا ينفع وجهل لا يضر .. والقرآن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. وقد حمل منهج البشرية ليحمى حركة الإنسان الاختيارية .. ومادام الإنسان يلتزم فى حياته بالقرآن الكريم .. فإنه يستديم الجمال فى الكون .. ويظل الكون جميلاً فيما لك فيه خيار جماله ودقته فى الأشياء التى لا خيار لك فيها .

ولقد قلنا أن هذا الكون ليس فيه عمل اختيار كامل .. أو متقن كل الاتقان .. وكلنا نقول حينما نرى ما يحدث فى الكون أن الكمال لله وحده .. وفساد الكون يأتى من أشياء داخل فيها اختيار الإنسان بدون منهج الله .. فهذه الأشياء هى التى تفسد الكون .. ولو دخلنا فى الأمور الاختيارية بمنهج الله لاستقام جمال الكون ..

وأحب أن أضرب مثلا على ذلك .. لو ذهبت إلى غابة أو روضة أو حديقة لم يدخلها الإنسان لو وجدت فيها الجمال .. ولو ذهبت إلى حديقة ثانية دخلها الإنسان .. تجد فيها القذارة والتشويه للجمال .. لماذا ؟ منهج الله جاء ليعصم الحياة فى حركة الإنسان الاختيارى .. وإذا ظل الجمال فى الكون موجوداً رضى الموجود عن الوجود .. واستقامت حركته وظلله الأمن والسعادة والرفاهية .. إذن منهج الله فى القرآن .. إنما جاء ليهدى للتى هى أقوم .. لذلك فإن القرآن نزل فى وقت اندثرت فيه الرسالات .. وزادت فى الشعوب بأكملها العلل والداءات .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عن القرآن إنه شفاء ورحمة ..

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة »

إذا أردنا أن نعرف لماذا قدم الله سبحانه وتعالى الشفاء على الرحمة .. ولماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى فيه رحمة وشفاء .. والرحمة هى التى تمنع كل داء فى الكون يأتى منه فساد المجتمع .. الرحمة تستأصل كل ما لا تحبه فى الحياة .. أما الشفاء فهو أن يكون الداء موجوداً فعلاً ثم بعد ذلك تأتى العافية .. والذى حدث عندما نزل القرآن أن الداءات كانت موجودة فى الكون من حروب وقتل وتشريد .. واستعباد وتفرقة بين الناس .. يأكل القوى حق الضعيف .. عذاب فى الأرض .. كان هذا هو حال المجتمع البشرى عندما جاء القرآن .. ولذلك نزلت الرسالة لتشفى البشرية من الشقاء الذى تعيش فيه .. فإذا شفيت البشرية من هذا واستقر منهج الله فى الأرض .. وحكم حركة الحياة .. تأتى بعد ذلك الرحمة .. لماذا ؟ لأن الأصل فى الأشياء انك تمنع الشر الموجود أولا .. فإذا منعت هذا الشر والتجأت إلى منهج الله .. ابتدأت الرحمة تأتى لتمنع الشقاء عن الكون .. فإن حدثت غفلة وابتعد الناس عن المنهج .. جاءت داءات جديدة .. فإذا عدت إلى القرآن .. وإلى منهج الله .. جاء الشفاء .. ثم جاءت الرحمة ..



الفصل الثاني

لماذا تركوا.. المنهج

داء البشرية الأصيل هو الغفلة (وتغيير المنهج) . . ذلك لأن الإنسان يتغاضى عن كثير من منهج الله . . فأنت إذا مرض إبنك . . أسرعت به إلى الطبيب تريد له العلاج . . وإذا لم تجد طبيبا أسرعت بطفلك إلى طبيب آخر . . وهكذا تنتقل من طبيب إلى طبيب تتعجل الشفاء لطفلك . . ولكن إذا ترك طفلك الصلاة . . فإنك نادرا ما تؤاخذه على ذلك . . فأنت تهتم بالابن اهتماما بالغا فى أن توفر له مستقبله الدنيوى . . ومن خلال هذا تنسى تماما « المنهج » .

بل إنك فى كثير من الأحيان . . تقاوم منهج الله . . لأنه يحد من حركتك فى الحياة التى لو تركت لكى تتمتع بالحركة فيها حسب هواك وما تريد . . لفسد العالم كله . .

والمنهج فى الإسلام موصى به من الله سبحانه وتعالى . . وهو محفوظ منه . . أى أن الله هو الذى يحفظه . . والقرآن معجزة . . ومنهج الاعجاز فيه هو أنه ليس للبشر فيه مكان . . فهو كلام الله محفوظ من الله سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة . . والاعجاز فيه أنه يعطى عطاء لكل جيل يختلف عن الجيل الذى قبله . . والاعجاز فيه إنه صالح لكل زمان ومكان . . والاعجاز فيه أنه يداوى أمراض المجتمعات أينما كان . . وانه كلام الله . . يحمل العلاج لكل الداءات . . ما معنى هذا ؟ معناه أن مجرد القول بهذا الكلام يفسر لنا معجزة كبيرة فى القرآن الكريم . . فالرسالات قد نزلت تعالج داءات المجتمع . . كل رسالة نزلت إلى قوم تعالج الداءات أو الانحرافات الموجودة فيه .

وكان المجتمع البشرى إذا انحرف . . أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا إلى هذا المجتمع . . ليعيد منهج الله ويعلى راية الحق ويعالج الداء . . حتى إنه كان هناك أكثر من رسول فى وقت واحد . . مثل إبراهيم ولوط . . ولكن القرآن جاء يعالج المشاكل برمتها . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى كان فى علمه أن الداءات ستتوحد . . ولذلك كانت وحدة الحل ضرورة . . ولقد شهدنا ذلك يتحقق . . فما يحدث الآن فى أى مكان من بلاد الدنيا . . نجده بعد دقائق قد عرفه العالم

أجمع .. وأنت تستطيع أن تركب الطائرة ، وخلال ساعة أو ساعتين تكون قد نقلتك من قارة إلى قارة أخرى .. المسافات اقتربت والدنيا كلها أصبحت يسمع بعضها البعض .. وكأنها تعيش فى بقعة واحدة .. لم تعد هناك انعزالات فى الكون .. بل أصبح الكون كله يعيش قريبا متقاربا .. وبذلك توحدت الداءات التى يشكو منها العالم .. ولو نظرت إلى أى دولة من دول العالم .. غنية أو فقيرة .. لوجدتها تشارك باقى الدول فى نفس المشكلة .. البطالة لارتفاع الأسعار .. وقلة الأجور .. ومشاكل الانتاج .

ولعل أبرز دليل على وحدة الداءات فى المجتمع .. أن الدولة المتقدمة ترسل خبراءها إلى الدول المتخلفة .. لتعالج المشاكل فيها .. ولو أن هذه المشاكل أو الداءات مختلفة .. لما استطاع خبراء الدول المتقدمة أن يعالجوا مشاكل الشعوب الأخرى .. ولكنها واحدة .. دول تغلبت عليها .. ودول أخرى لم تستطع التغلب .. وهذا إعجاز القرآن الكريم .. بأنه تنبأ بوحدات الداءات والمشاكل فى العالم .. فجاء بوحدة الحل لهذا كله فى نظام الحياة الذى قدمه الله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين .

وعندما جاء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام الله .. كان هناك قضايا قضى فيها الرسول .. وجاء حكم الله موافقا لذلك مرة .. ومعدلا له مرة .. ولذلك قال المتشككون فى منهج رسول الله .. ان تصحيح الله لأحكام صدرت من رسوله صلى الله عليه وسلم .. دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد يخطىء .. نقول لهم أن ذلك جزاف من القول .. فما هو الخطأ ؟ وما هو الصواب ؟ الخطأ هو أن توجد قاعدة مسبقة ثم يخالفها المخطىء .. فيأتى من وضع القاعدة فيصوبها له .. نحن نعلم الطفل أن الفاعل مرفوع .. فيأتى هو ولا يرفع الفاعل مع انك نبهته إلى ذلك مسبقا .. وفى هذه الحالة تصوب له أنت خطأه .. لماذا ؟ لأنه خالف القاعدة الصحيحة التى أعطيت .. ولكن إذا لم يكن هناك قاعدة .. ويأتى التصويب بعد

الحدث .. فلا يقال انه أخطأ .. لأن الذى أخطأ لابد أن يعرف ما هو الصواب .. ولم يكن هناك حكم من الله خالفه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ثم رده الله عن هذه المخالفة .. ولكن كل الأمور كان يتم الحكم فيها ببشرية الرسول .. ثم يأتى قول الله بحكم الله .. وحكم البشر فى قضية لا يمكن أن يكون مساويا لحكم الله . فحين يأتى كلام الله لا يقال إن الله صوب .. وإنما يقال إن الله قد هداه إلى ما هو أصوب .

رسول الله كان عنده عبد اسمه زيد بن حارثة .. وهبته له زوجته خديجة .. ولما علم أهل زيد .. وكان قد خطف منهم وبيع فى مكة لما علموا بوجوده فى مكة .. جاءوا إليه .. وعندما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقدم أهل زيد .. ترك لزيد أن يختار .. إما أن يبقى معه وإما أن يعود مع أبويه .. فقال زيد ما كنت لاختار على رسول الله أحدا .. وهنا أراد الرسول أن يكرم الإنسان الذى اختاره فتبناه .. فكان له أبا وسمى زيد بن محمد .. وكانت عادة التبنى موجودة عند العرب .

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبطل التبنى .. فهدى رسوله إلى ذلك .. فقال تعالى : **« أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله »** .. إذن عندما وقعت الواقعة لم يكن هناك حكم من الله خولف .. ولكن التصرف كان يتمشى مع الأحداث .. ثم جاء حكم الله الذى نزل عليه الجميع .. وانظروا إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : **« هو أقسط »** .. أى أنه أفضل .

ومعنى ذلك .. أنك أنت يا محمد فعلت ذلك .. ولكنى سأدلك على ما هو أقسط عندى .. لأنك قريب منى .. ورسول إلى البشر أجمعين .. ولذلك فلابد أن أهديك إلى أقوم طريق .. وأعلمك إلى ما يقربك منى .. إذا أردت أن تعرف فأعلم انه أقسط عند الله أن تدعو زيداً إلى أبيه .. أى زيد بن حارثة .. ذلك هو الأقرب إلى الله سبحانه وتعالى .. وحين تنزل الآية .. يتخذ الرسول

الكريم على الفور طريق القربى إلى الله سبحانه وتعالى ويبطل التبنى .

ويأتى بعض الناس ليقول هناك تناقض بين هذه الواقعة وبين قوله تعالى : « **وما ينطق عن الهوى** » . . ونقول لكل من يثير هذا الكلام : انك لم تفهم معنى الآية الكريمة « وما ينطق عن الهوى » معناه أنه لا ينطق عن هوى فى نفسه . . فإذا كان صديقا لأحد أو قريبا لفرد أو يحب إنسانا فلا يجعله هذا الهوى يبتعد عن الحق أو يقضى بغيره . . رسول الله حين ينزل إليه الحق . . لا ينطق عن هوى أبدا مهما كان ذلك الذى تهواه نفسه . . فهو دائما مع الحق . . ولذلك كان الناس إذا اختلفوا حول أى قضية . . كان من له الحق يطلب أن يحكموا فيها رسول الله . . ومن كان عليه الحق هرب من حكم رسول الله . . ذلك أنهم يعلمون جميعا أن رسول الله مع الحق . . ولا ينطق عن الهوى .

ولهذا كانت كل لفتات الله سبحانه وتعالى إلى رسوله . . إنما هى لفتات لزيادة القربى . . ولفتات حتى لا يحمل رسول الله نفسه فوق طاقته .

رسول الله فى قضية ابن أم مكتوم نزلت فيها الآية الكريمة : « **عبس وتولى إن جاءه الأعمى** »

ما الذى اختاره الرسول . . إختار الأمر السهل أم الأمر الصعب ؟ لقد ترك الرسول السهل إلى الصعب . . وبدلا من أن يتخذ الطريق السهل ذهب يتعب نفسه مع قادة كفار قريش . . وهنا يطالبه الله بأن يلتجىء إلى الأسهل . . لأنه يحب رسوله . . والرسول يحب الله ويريد أن يتحمل فى سبيله مشقة هائلة . .

ولذلك لم يعاتبه الله . .

وهكذا لابد أن نعرف مقام محمد عند ربه . . فالله سبحانه وتعالى يريد لنبيه أقرب مقام .

وفى نفس الوقت تأتى رحمة الله أن تحمل رسوله ما لا يطيق : « **ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى** » . .

فقد ألزم محمد نفسه بشيء أكثر مما يجب عليه . . وهذا من منطلق الأمانة فى التبليغ والأداء . . والرسول صلى الله عليه وسلم حين يبلغ هذه الآيات كلها ولا يكتم منها شيئا فهى أمانة البلاغ . . والقرآن قد جاء إلينا كما قاله الله سبحانه وتعالى . . الله تكلم . . وجبريل نقل كلام الله إلى محمد . . ومحمد نقله إلى الصحابة والدنيا كلها . . والقرآن كما قلنا الكون يفسره .

وهناك اتجاهان الآن . . اتجاه يحاول أن يلصق العلم بالقرآن . . واتجاه آخر يرفض أن يقترن العلم بالقرآن . . لأن النظرية العلمية قد تكون غير صحيحة . . والمنهج الأول خاطىء . . والمنهج الثانى خاطىء . . لماذا ؟ لأن هناك فى الكون حقائق علمية ونظريات علمية . . وأن تربط القرآن بنظريات علمية خطأ . . لأن النظرية العلمية قد تخطىء . . ولكن هناك الحقائق العلمية . . وابتعادك بالقرآن عن النظريات العلمية تماما قد يجعلك لا تلحظ المعجزات القرآنية وآيات الله فى الكون . . ولكن الذى يحدث أن النظريات العلمية إما جهل . . وهو أن تؤكد حقيقة علمية غير صحيحة . . وإما تقليد أمام نظرية علمية واقعة وليس عليها دليل . . وإما علم حقيقى إذا كانت النظرية واقعا علميا وعليها دليل مجزوم به .

ولكن هل يصطدم القرآن بالعلم . . ؟ . . الحقيقة لا . . القرآن لا يمكن أن يصطدم بالعلم . . لأن الله هو الذى خلق الكون . . وأنه سبحانه وتعالى هو الذى أنزل القرآن وهذا كلامه . . ومادام القائل هو الفاعل ، فلا يمكن للعلم أن يصطدم مع القرآن أبدا . . وإنما القرآن يصطدم مع الجهل . . مع الشك . . مع الظن . . مع الوهم ومع التقليد . . أما ما ثبت أنه علم . . فلا يمكن أن يصطدم مع القرآن الكريم . . لأنه كما قلت . . قائل القرآن هو خالق الكون . . ومادام القائل هو الفاعل فلا توجد حقيقة كونية تتناقض مع حقيقة قرآنية . . وهو ما يؤكده كل علماء العالم .

الفهم الخاطىء

ولكن ما الذى يحدث . .؟ ومتى ينشأ التناقض ؟ حقيقة علمية وحقيقة قرآنية لا تناقض . . إنما التناقض ينشأ من أن هناك حقيقة كونية تحتوى على نسبة من الخطأ . . أو حقيقة قرآنية يُساء فهمها . . فتصدم بحقيقة كونية .

مثلا بعض الناس يقول إن القرآن الكريم أكد عدم كروية الأرض . . فإذا سألتهم من الذى أعطاكم هذه الحقيقة القرآنية . . قالوا الآية الكريمة : « والأرض مددناها » . . أى بسطناها . . أى أن الأرض مبسوطة بنص القرآن الكريم . .

نقول لهم هذا الفهم خاطىء . . فقول الله سبحانه وتعالى **« والأرض مددناها »** . . يحمل الدليل الاعجازى على كروية الأرض . ويستبعد أن تكون الأرض مسطحة . . بل إن الآيةالكريمة **« والأرض مددناها » لا تصح** إلا إذا كانت الأرض كروية . . كيف ؟.

القرآن الكريم قال : « والأرض مددناها » أى بسطناها ، ولكن هل قال القرآن الكريم أو حدد أى تلك التى مددناها أو بسطناها . . لا لم يحدد . . ولكنه ذكر لفظ الأرض على إطلاقها . . أى أنك إذا نزلت على أى أرض على سطح الكرة الأرضية ترى الأرض مبسوطة أمامك . . سواء كان المكان الذى نزلت فيه . . فى خط الاستواء أو فى القطب الشمالى أو الجنوبى . . إذن الأرض ممدودة حيثما ذهبت . . وأينما كنت . . فإذا كانت الأرض مربعة أو مسدسة أو مثلثة أو على أى شكل هندسى آخر يتنافى مع الحقيقة القرآنية فى قول الله سبحانه وتعالى **« والأرض مددناها »** . . **أى « بسطناها »** . . لأنك ستصل فيها إلى مكان تكون فيه الأرض ممدودة . . لابد أن تكون الأرض كروية .

ولذلك عندما يقولون إن كروية الأرض تصطدم مع حقيقة قرآنية . . نقول : إن الصدام لم يحدث بين حقيقة علمية قرآنية . . . بل الصدام الذى حدث هو بين فهمك أنت لحقيقة قرآنية وإعطائها غير معناها . . فأنت قد أخذت الحقيقة

القرآنية بالعكس . . فاصطدمت مع الحقيقة الكونية . . بينما لو دققنا فى المعنى لوجدنا أن الحقيقة القرآنية والحقيقة الكونية لا اصطدام بينهما . . ولذلك فليطمئن الغيورون على دين الله . . الذين لا يريدون أن يربطوا القرآن بالمسائل العلمية . . نقول لهم إذا أردتم أن تربطوا القرآن فيجب أن يكون ذلك حقيقة قرآنية بحقيقة كونية . . وحينئذ لا تصادم أبدا . . لأن حقائق الكون لا تتعارض مع الحقائق القرآنية . .

● ● ●

مثل آخر . . بعض الناس يأتى ويقول لك تفسيرا لقول الله سبحانه وتعالى **« ويعلم ما فى الأرحام »** . . ويقولون إن بعض الأطباء أصبحوا يأخذون عينات . . ويعرفون هل جنين الأم ذكر أم أنثى قبل الوضع بفترة قليلة . . نقول لهم : أولا ما يذكر عند الأطباء ليس حقيقة كونية . . لأن هناك نسبة فى الخطأ تحدث . . تقل أو تزيد . . ويضاف إلى ذلك أن الاختيار هنا فيه نسبة ٥٠٪ خطأ و٥٠٪ صواب . . أى أن هناك احتمالين لا ثالث لهما . . إما أن يكون ذكرا وإما أنثى . . ومن هنا يكون التمييز سهلا . . بل إننا نرى عددا من النساء ينظرن إلى إمرأة ويقلن لها ستأتين بولد . . أو ستلدين أنثى . . وتضع المرأة فعلا حسب النبوءة . . فهل هؤلاء السيدات اللاتى لم يقرأن سطرا واحدا فى حياتهن فى الطب أو فى غير الطب . . يعلمن ما فى الأرحام . . أم أن المسألة مجرد تخمين . . لو أن الاختيار بين بدائل عديدة ثلاثين أو أربعين مثلا . . وجاء العلم بالنوع الحقيقى من بين الثلاثين احتمالاً لقربت المسألة من أن تكون حقيقة علمية . . ولكن البدائل هنا واحد فقط .

أن كلمة (ما) تعنى أكثر من ذلك بكثير . . فهى تعنى هل هو ذكر أم أنثى ؟ . . شقى أم سعيد ؟ . . أبيض أم اسود ؟ . . ما هو عمره وما هو رزقه . . وما هو نصيبه فى الحياة . . وما سيحدث له منذ لحظة دخوله فى الحياة إلى لحظة خروجه منها .

ولعل القرآن الكريم يفسر لنا شيئا من مدلول كلمة ما . . فى قوله سبحانه

وتعالى فى سورة مريم : « يا زكريا إن نبشرك بغلام إسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » . . وقوله تعالى :

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة مريم)

وقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

بماذا أنبأ الله زكريا . . ؟ . . أنبأه أن إمرأته وهى عاقر ستلد . . وأنها ستلد غلاما . . سيطلق عليه اسم يحيى ، وهو اسم لم يطلق على أحد من قبل . . وأن هذا الغلام سيكون سيدا ونبيا من الصالحين . . وأنه سيأخذ الحكم صبيا . . وسيكون تقيا وبارا بوالديه . . ولن يكون جبارا . . وأن السلام سيكون عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا . . كل هذا أخبر الله به زكريا . . بالغلام قبل أن يوجد فى بطن الأم أو قبل أن يتم الحمل . . فزكريا كان يصلى فى المحراب . . ويدعو الله بأن يرزقه بولد . . حين أخبرته الملائكة . . لم ينتظر حتى يتم الحمل . . ولا هو اقتصر على ذكر أو أنثى . . ولكنه تناول أشياء كثيرة ومتعددة ستحدث بعد ميلاد الطفل بسنوات عديدة . . وعرفها زكريا . . فمن ذا الذى قال إن كلمة (ما) تعنى ذكرا أو أنثى فقط .

لقد روى الله سبحانه وتعالى لزكريا مجمل الأحداث الهامة فى حياة ابنه يحيى .. قبل أن تحمل أمه فيه .. فإذا قلت إن كلمة « ما » تعنى ذكرا أو أنثى .. نقول لك من الخطأ أن تقصر معنى القرآن على شيء .. وأن تربط القرآن بكونيات لم تثبت لأن فيها نسبة خطأ .. كما هو الحال بالنسبة للذكر أو الأنثى .. ولعل هذا يذكرنا بما حدث فى أول العصر الحديث حين ربط بعض العلماء بين الكواكب السيارة السبع والسماوات السبع .. ثم مرت السنوات واكتشف كوكب ثامن .. وكأن هذا الذى حدث محاولة لربط ظن كونى بحقيقة قرآنية .. والعلماء فى ذلك الوقت فرحوا عندما وجدوا الكوكب الثامن .. ونسوا أن كل هذا فى السماء الدنيا .. ثم بعد ذلك زاد الكشف حتى أصبح عدد الكواكب أحد عشر .. وأن بينى وبين الشمس ٨ دقائق ضوئية .. وبينى وبين عدد من الكواكب وهو ما سبق أن تحدثنا عنه .. فإذا جاء أحد يحاول أن يربط نزول الإنسان على القمر كحقيقة علمية بالآية القرآنية « **لا ينفذون إلا بسلطان** » . ويقولون إن هذا هو سلطان العلم .. نقول أنك قد جهلت حقيقة قرآنية . على أن الله سبحانه وتعالى قد تحدى الجن والأنس أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض .. والقمر ضاحية من الأرض .. والمجموعة الشمسية كلها دون السماء الدنيا .

● ● ●

والإنسان فى كثير من الأحيان يغتر بقوته .. ويحاول أن يجعل من هذه القوة ميزانا للكون كله .. مع أن الله سبحانه وتعالى قد جعل القوة البشرية محدودة .. والقدرة البشرية على الاختيار مركزة فى الحدود .. فالجسد الإنسانى مثلا خارج قدرة الاختيار .. كيف أنت .. ما هو شكلك .. طويل أم قصير .. كيف تنمو ؟ .. كل هذا خارج منطقة الاختيار .. أعضاؤك تعمل خارج الاختيار .. قلبك يدق سواء أردت أم لم ترد ..

ومعدتك لا تنتظر أمرا منك حتى تقوم بهضم الطعام .. وأنفك ورئتاك لا تأخذان إذنا منك لتستنشق الهواء .. تبقى بعد ذلك الحركة الاختيارية .

وهى تسير مع جزء محدود من حركة الحياة . . هناك أشياء تركك الله سبحانه وتعالى تختارها دون أن يقيدك . . فأنت حر مثلا بين أصناف متعددة من الطعام . . تختار منها ما تشاء دون أن يكون هناك عقاب عليك . . وأنت تستطيع أن تذهب لتعيش فى أى بقعة من بقاع الأرض . . دون أن يحاسبك الله لماذا تركت هذا البلد وعشت فى تلك . . ولكن الأمر الاختيارى الذى عليه الحساب هو فى التكليف . . فقد أعطاك الله القدرة أن تفعل ولا تفعل . . فعرض عليك الصلاة . . وأنت تستطيع أن تصلى وأن تترك الصلاة . . وكذلك الصوم . . وكذلك الزكاة . . لماذا ترك هذه التكليفات وأعطى لك فيها أن تختار فى أن تفعل ولا تفعل . . لأن الله سبحانه وتعالى يريدنا كذلك . . فلو كان الله سبحانه وتعالى يريد أن نذهب إليه قهرا . . لاستطاع وهو قادر على ذلك .

وإذا أراد أن يخلقنا مسخرين لعبادته . . لكنا كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يثبت أن من خلقه من يذهب إليه اختيارا . وهو قادر ألا يذهب . . لماذا . . ؟ لأن هذه صفة المحبوبية للمعبود . . لو أن الله سبحانه وتعالى جعل كل الناس مؤمنين . . لكان ذلك صفة القهرية . . ولكن الله يريد المحبوبية التى تجعلك وأنت قادر على ألا تطيع . . وأن تطيع .

وإذا أردنا أن نضرب بذلك مثلا . . ولله المثل الأعلى . . نقول : هب أن لديك عبدين . . واحداً اسمه سعد وواحدا اسمه سعيد . . الأول تقيده وترسله إلى حيث تريد . . لا يجرؤ على أن يعصيك لأنك تستخدم معه القهر . . أما الثانى فتتركه بلا قيود . . ولكنه يفعل ما تطلبه منه مع أنه قادر على العصيان . . فى هذه الحالة يكون الثانى يطيع أوامرك لأنه يحبك . . وقد يكون هذا الحب من العطاء . . عطاء الله لنا فى الدنيا والآخرة . . ذلك العطاء الذى يسترنا وينجينا ويحيينا الحياة الطيبة . . ثم يعطينا الجنة فى الآخرة . . يدفعنا إلى عبادة الله حبا فى عطائه . . وبعض المتصوفين يعرفون أن عطاء الله هو الأنس بلقائه . . هذا

يكون من أجل لقاء الله سبحانه وتعالى والتنعم بهذا اللقاء .

ولقد قالت رابعة العدوية . . **« اللهم إن كنت تعلم انى أعبدك طمعا فى جنتك فاحرمنى منها . . وإن كنت تعلم انى أعبدك خوفا من نارك فأدخلنى فيها . . فأنا أعبدك لأنك تستحق أن تعبد »** . .

وهكذا خلقنا الله سبحانه وتعالى فى الحياة مختارين لنعبده . . وأنت حين تستعرض أفراد الانس وأفراد الجن . . تجد فوارق فى العطاءات . . البشر منا كأناس هم أفراد متساوون . . إنسان وإنسان . . ولكن قد يعطى الله فرصا لأحدنا أكثر من الآخر . . وكذلك توجد هذه الفوارق فى جنس الإنسان والجان . . فالله تبارك وتعالى خلق الإنسان من طين وخلق الجن من نار . . وعناصر المواد التى تكون منها كإنسان تتحكم فى طبيعته . . فإذا وقفت أنا مثلا وراء جدار فإنه لا يظهر منى شيء من أمام هذا الجدار . . أى أننى بطبيعتى كإنسان من طين . . لا أستطيع أن أخترقه ، ولا أن يرانى أحد وأنا مختبىء خلفه . . ولكن لو أوقدنا نارا خلف هذا الجدار وأنت جالس أمامه . . فربما ترى وهج النار . . إذن فالوهج نفذ من الجدار . . بينما الطين بقى جامدا لا يستطيع أن ينفذ . . كذلك الجن فقد خلقه الله من نار . . أى أن الله سبحانه وتعالى أعطاه خصائص لم يعطها للإنسان . . وهكذا كان الجن بحكم خلقه متميزا عن البشرية . . ولكن الله سبحانه وتعالى يأتى للجنس الأدنى وهو المخلوق من طين ويجعله يتميز على الجنس الأعلى . . فيأمر الملائكة أن يسجدوا له . . ويسخرهم لشئونه . . ويعطى لمن يشاء القدرة على أن يسخر الجن ويجعله خادما له . . كما أعطى لسليمان عليه السلام . . بحيث كان البشر هنا حاكما للجن وأجناس أخرى متميزا عليها .

قوة بإرادة الأقوى

ولماذا فعل الله سبحانه وتعالى ذلك . . ليميز أن المسألة ليست بعنصر الخلق . . ولكن بإرادة الخالق . . الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أنه يخضع

الأعلى للأدنى ، لنعلم أن القوانين لا تحكم الله سبحانه وتعالى . . ولكن الله هو الذى يحكم القوانين . . وهذه لا قيود لها على قدرة الله سبحانه وتعالى . . وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى من صفاته . . ولكن الله شاءت رحمته فى كل أمر غيبى عنا . . أن يقربه إلينا ليجعله فى حدود الفهم البشرى وتلك هداية للبشر ورفقا بعقولهم . . فالله سبحانه وتعالى مثلا جعل الذرية من الذكر والأنثى . . هذا هو قانون الحياة . . ولكنه يأتى بخلق آدم بلا أب ولا أم . . ويخلق حواء بدون أنثى من ضلع آدم . . ويخلق عيسى ابن مريم عليهما السلام . . ثم يخلق من الذكر والأنثى . . وهذا قانون الكون . . ولكنه يخضع لمشيئة الله . . فيجعل الله سبحانه وتعالى من يشاء عقيما ، أى أنه رغم وجود الذكر والأنثى لا تحدث ذرية .

والله سبحانه وتعالى يضرب لنا هذه الأمثال كدليل على طلاقة القدرة . . وأن القوانين لا تحكم الله . . وقدرة الله فوق كل قانون . . والله يفعل هذا فى أمثلة قليلة وليس على العموم . . لأن ارادة الله شاءت أن تمضى الحياة فى الأرض بالأسباب . . أى بالقوانين التى وضعها الله لها . . ولكن حتى لا نترك الله ونعبد هذه القوانين والأسباب . . ونعتقد انها تعطى وحدها دون المسبب أو الخالق . . فقد ضرب الله لنا هذه الأمثلة . . لنعرف أن ارادة الله فوق القوانين وفوق كل شىء . . فإذا جعل الله جنيا فى خدمة الانس . . مصداقا لقوله :

« وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا »

وحين نقرأ هذه الآية نعرف أن الله إذا أعطى فرصا غير متكافئة يحاسب عليها . . أى أن الأساس فى الكون هو الفرصة المتكافئة للجميع . . كل إنسان ميسر لما خلق له . . فيه ميزات تساوى الميزات التى يحصل عليها الآخر . . فإذا استطاع إنسان أن يسخر جنيا حصل على فرصة أكبر من أفراد جنسه . . لأنه فى هذه الحالة يكون فى خدمته من يملك قانونا أقوى . . ويستطيع أن يفعل ما لا يستطيع أن يفعله غيره من البشر . . حينذاك إذا استبد بهذا الإنسان هواه وأنانيته . . واستخدم هذه الميزة فى الشر بدلا من الخير . . سلط الله عليه ما يجعله مرهقا

متعبا فى حياته . . ولذلك نجد أمثال هؤلاء الناس يعيشون حياة تعسة شقية . . وينتهى أمرهم بالانتحار أو الجنون .

إذن الذى يأخذ فرصة أعلى من غيره . . قد تشقيه ولا تسعده . . والذى يعطيه الله فرصة أقوى إذا لم يستخدمها فى الخير . . سلط عليه الشقاء . . ولذلك نجد من يصل إلى فرصة أعلى . . نحن نغبطه على أنه سيعيش حياة كريمة . . ولكن الحقيقة أنه ربما تجلب له هذه الفرصة الشقاء والتعاسة . . وذلك هو قانون التوازن فى الدنيا . . أى مجتمع . . المجتمع الذى لا يصلح إلا إذا تكافأت فيه الفرص . . قرية آمنة مطمئنة . . ثم يأتى إنسان ويحصل فيها على السلاح . . يعطيه فرصة غير متكافئة مع أهل القرية . . ويجعله هو الأقوى إذا استخدم هذا السلاح فى الدفاع عن القرية ضد أى مجرم يعبث بأمنها . . أو ضد أى إنسان يريد أن يهددها . . بارك الله فى عمله . . ولكن إذا استخدم هذا السلاح فى فرض الأتاوات على الناس والظلم فى الأرض . . وأن يكون هو الأقوى . . سلط الله عليه من أهل القرية . . أو من خارجها . . من يأتى ويحمل سلاحا ويقف ليهدده هو . . ويصبح هنا تكافؤ فرص . . لأن الذى يمتلك السلاح فى هذه الحالة يخشى ذلك القادم أو الذى يحمل سلاحا من أهل القرية . . فيبدأ فى مراجعة نفسه ويبتعد عن طغيانه . . فإذا أخذه غرور الدنيا ولم يفعل ذلك . . فقد يدفع حياته ثمنا لتجبره وبعدها عما أمر به الله . .

إذن فوجود الإنسان الذى يخل بتكافؤ الفرصة فى المجتمع . . يفسد هذا المجتمع . . فيأتى الله سبحانه وتعالى بمن يعيد التوازن إليه . . وفى هذا التوازن يكون الصلاح . . فتكافؤ الفرص فى الحياة هو التوازن . . فإذا اختل ذلك فسد المجتمع . . كذلك الذى يستعين بقوى غير قوى البشر كالجن مثلا . . نجد شكله منفرا . . ورغم انه قد يستخف بعقول بعض البشر . . ويحصل منهم على أموال . . إلا انك دائما تجده مفلسا معسرا ويموت فى أسوأ حال . . إذن الفرصة غير المتكافئة لا تجلب له إلا الشقاء . . كما قال الله سبحانه وتعالى : **« فزادوهم رهقا »** .

سليمان .. والجـــان

والله سبحانه وتعالى حين سخر الجن لسليمان .. سخرهم لنفع الناس وعمارة الأرض .. ولم يسخرهم فى الايذاء .. فالذين يسخرونهم فى الايذاء يجنون الشر .. وهذه رحمة من الله تبارك بعباده .. لأنه لو أعطى لعدد من البشر فرصة لم تتح للآخرين .. فإن القسوة والشقاء سيسودان العالم .. خصوصا إذا استغل من أعطى هذه الفرصة ليزداد بها شرا ومعصية .

ونريد أن نلفت الأنظار هنا إلى قوله سبحانه وتعالى فى تسخير الجن لسليمان : « **وما كفر سليمان** » .. أى أن الله سبحانه وتعالى حين سخر لسليمان الجن ، كان عليما بأن سليمان لن يكفر .. ولن يستخدم هذه القوة المسخرة له فى الشر .. ولكن استخدمهم فى الخير .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى عن الملكين هاروت وماروت اللذين علما الناس السحر .. « **وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** » .. وكلمة (لا تكفر) معناها انك إذا أخذت قوة ظاهرية فى الكون فاياك أن تستعملها فى غير الخير .. وهذا ينطبق على العموم فى أى قوة يعطيها الله لك .. فأنت وقت الطلب تقول ياربى اعطنى كذا لأعبدك حق عبادتك وافعل الخير فى الكون .. فاياك أن تستعملها فى غير الخير .. فإذا أعطاك الله غرتك قوتك الظاهرية ، وبدأت تفسد فى الأرض .. فإذا أردت حكما مثلا دعوت الله سبحانه وتعالى أن يمكنك فى الأرض .. واستجاب الله لك .. فإذا بك بعد أن يمكنك الله فى الأرض تستخدم ما أعطاه لك فى محاربة الحق ونشر الظلم والفساد .. معتقدا انك فى منعة من الله سبحانه وتعالى .. وهكذا وقت أن كنت تطلب تدعى الخير .. وبعد أن تمكنت اتجهت إلى الشر .

وهنا يعلمنا الله مسلك الشيطان فى النفس البشرية .. فأنت إذا ملكت سيأتى الشيطان ليوسوس فى نفسك .. كما وسوس فى نفس آدم .. فيوحى إليك أن

ملكك هذا لا يبلى . . أى لا يزول . . وانك خالد لن تلقى الله ليحاسبك . . فتنسى يوم الحساب . . وتبدأ تفسد فى الأرض . . ثم بعد ذلك يزول ملكك . . ويذهب عنك الجاه والسلطان . . وتلقى الله وحيدا مجردا من كل جاه الدنيا . . حيئنذ يكون الشيطان قد أفسد عليك الفرصة التى أخذتها . . بدلا من أن تكون أنت الأعلى أصبحت أنت الأسفل . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى طلب منا حين نقرأ القرآن . . أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . . لماذا ؟

لأنك لو استعنت بالخالق بين خلقه . . لا يستطيع هذا الخلق أن يفسد نفسك . . والشيطان يريد وأنت تقرأ القرآن أن يمنعك من أن تتلقى فيوضات القرآن . . فإذا استعنت بالله فالشيطان يخمد . . لأنه إذا ذكر الله خمد الشيطان الرجيم . . إذن فقول الله إذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . . يقال ليصبح جهاز استقبالك لصفاء القرآن بلا شوائب .

والقرآن كلام الله . . فأنت تسمعه سبحانه وتعالى يتكلم .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : **« وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا »**

لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتكلم . . وأنت حين تتحدث وقت قراءة القرآن فانك لا تشوشر على قارئه . . ولكنك تشوشر على كلام الله . . ولذلك فإن جعفر الصادق . . رضى الله عنه . . كان أكثر أهل بيت رسول الله علما بأسرار القرآن . . لذلك قال : عجبت لمن يصيبه الهم والخوف . . خوف المكر به . . أنه لم يقرأ قول الله تعالى **« حسبنا الله ونعم الوكيل »** وقد سمعت الله بعدها يقول : **« فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء »** . . وهكذا كان يقول عن القرآن دائما سمعت الله يقول :

والقرآن سمى قرآنا لأنه يقرأ . . وسمى كتابا لأنه يكتب . . وجعله سبحانه وتعالى حفظا فى الصدور وتسجيلا فى السطور . . والقرآن نزل ليذكر الناس الطريق المستقيم . . ويرسم لهم الحياة الطيبة الآمنة هى الأرض . . لكن الله

سبحانه وتعالى لينصف خلقه ولا يجعل لأحد حجة يوم القيامة . . حفظ القرآن من التدخل البشرى . .

فلم يستطع أحد . . ولن يستطيع أن يخفى شيئا من القرآن . . أويبدل أو يغير فيه . . ولو نظرنا إلى منهج القرآن . . لوجدنا الناس كلما تقدم بهم الزمن . . تحللوا من المنهج وابتعدوا عنه . . ولكن مع تحللهم من المنهج فإن حفظ القرآن فى ارتفاع مستمر . . وهنا تظهر معجزة من معجزات القرآن الكريم . . ذلك أن الله قد علِم أزلا هوى النفس البشرية . . وعلم أن هذه النفس ستحيد عن الطريق المستقيم . . فماذا فعل الله . . ؟

لقد كانت الكتب السماوية التى سبقت القرآن أمانة فى عنق البشر . . ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد ائتمن البشر عليها . . هم الذين يحفظونها من أى تعديل أو تحريف . . أو إغفال لذكر أحكام الله . . ولكن الله سبحانه وتعالى قد اختص القرآن بأنه هو الذى يحفظه مصداقا لقوله تعالى : **« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »** . . وبذلك بقى القرآن الكريم أربعة عشر قرنا . . وسيبقى إلى يوم القيامة محفوظا من أى عبث بشرى . . أو أى تدخل من إنسان مهما كان .

لقد بذلت محاولات ودبرت مؤامرات . . ولكن أحدا لم يستطع ولن يستطيع أن يمس القرآن الكريم . . لأن الله سبحانه وتعالى يحفظه ويقيه من أى تحريف أو تدخل بشرى . . ولذلك عندما درس المستشرقون القرآن والكتب السماوية الأخرى . . وجدوا تعارضا بين الكتب السماوية وبين حقائق الكون . . ولكنهم لم يجدوا أى تعارض بين القرآن وبين قوانين الكون . . لماذا . . ؟ لأن الكتب الأخرى دخلها هوى البشر . . نسوا بعض ما ذكروا به . . والذى لم ينسوه أخفوه . . والذى لم يخفوه حرفوه وبدلوه . . أما القرآن فإن الله سبحانه وتعالى يحفظه . . لذلك فإنك ترى أيضا أنه بينما خط المسلمين فى تطبيق المنهج يقل مع مرور الزمن . . ومع المغريات المادية ، فإن خط حفظ القرآن يعلو ويتضاعف . . بل إن الله سبحانه وتعالى قد سخر غير المؤمنين للمساهمة فى خط حفظ

القرآن . . ليدل على أن هذا الخط منه هو وحده لادخل لبشر فيه . . فتجد ألمانيا مثلا تطبع القرآن الكريم بشكل جميل فى لوحة واحدة . . وإيطاليا واليابان تطبعان القرآن طباعة متقنة . . وربما لاتقومان بطبع الانجيل ولا التوراة . . وتجد الانسان يضع المصحف فى جيبه أوفى سيارته . . وآيات قرآنية تعلق على الصدور . . والقرآن فى كل بيت حتى ذلك الذى لايتبع منهج الله . . وتعجب أنت أن خط الايمان يميل إلى الهبوط . . وخط حفظ القرآن يميل إلى الصعود . . نقول لك : أنه إذا كان الخطان يتبعان إرادة البشر لكان المنطق أن يسيرا فى إتجاه واحد . . ولكن هناك خطا يتبع الارادة البشرية وهو الايمان . . وخطا يتبع إرادة الله وهو حفظ القرآن . . الخط البشرى يتناقص والخط الالهى يعلو ويزداد . . ذلك لأن الحفظ مقطوع به من الله . . وبوعد منه سبحانه وتعالى . . ولو كان الامر منطقيا لأهملنا تسجيل القرآن كما أهملنا تسجيل منهجه من حياتنا . . ولكن الاهمال يحمل سلوك البشر . . وتوثيق المنهج من حيث تسجيله وحفظه والعناية به هو من الله . . إذن فلا عذر لأحد . . فإن منهج الله حفظا وتسجيلا لن يختفى من الوجود . . وسيظل القرآن لكل من أراد أن يستقيم ويتبع المنهج .

***

ولكن الناس حين يصرفون أنفسهم عن القرآن يكونون داخلين فى دائرة التكليف أو الأمر الاختيارى . . ودائرة التكليف تستطيع فيها أن تفعل . تطيع أو لا تطيع . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال إفعل فلابد أنك تستطيع ألا تفعل . . ومادام قد قال لاتفعل فإنك تستطيع أن تفعل . . وإلا لما قالها . . والله سبحانه وتعالى قد جعل لك أمورا إختيارية . . وأمورا بلا إختيار . . ومعظم الأشياء خلاف العبادة والتكليف وأمور الحياة الشخصية . . الانسان غير مخير فيها . . شكل الانسان . . هل هو طويل أم قصير . . ذكى أم غبى . . أبيض أم أسود ، قوى البنية أم ضعيف الجسد . . من هو أبوه ومن هى أمه . . ماهو البلد الذى ولد فيه . . كل هذا لا إختيار للبشر فيه . . والكون بنظامه المتقن هواؤه وماؤه . . أرضه وسماؤه . . شمسه وقمره . . نجومه وجباله . . نظامه المتقن الذى لا يختل . . البالغ الدقة .. كل هذا لاختيار للبشر فيه . .

الحياة والموت . . الصحة والمرض كلها عوامل لاتخضع للمشيئة البشرية . . رغم مايدعيه عدد من الناس . . فالطبيب هو واسطة الشفاء . . وليس معطى الشفاء . . والله سبحانه وتعالى أحيانا يهدى أصغر الأطباء إلى الداء فيعالجه . . وأحيانا يعمى أكبر الأطباء عن الداء فلا يستطيع له علاجا .

بل إن الجنس البشرى لادخل لانسان فى أجزاء كثيرة منه . . القلب يدق سواء أردت أم لم ترد . . والمعدة تعمل على هضم الطعام دون أن تصدر لها أمرا بذلك . . والدورة الدموية تؤدى مهمتها وأنا لا أكاد أحس بها . . وأشياء كثيرة فى الجسم تمضى دون إرادة منى . . بل إنها فى كثير من الأحيان تؤدى وظيفتها وأنا نائم لا أدرى شيئا . . كل هذه الأشياء لا اختيار لى فيها . ولا حساب عليها . . والكون بجماده ونباته وحيوانه وأجناسه الأخرى غير الانس والجان مقهور لله سبحانه وتعالى . . ولذلك نجد كل الأنظمة تمضى تؤدى مهمتها . . ولكن الخلل فى الكون يجىء من ناحية ماجعل الله سبحانه وتعالى الانسان مختارا فيه . . فالاختيار هنا يجعل الانسان يؤدى أعمالا ضد المنهج فيفسد الكون.

***

وإذا كنا نريد أن نعيش القرآن . . وأن نحيا بما أمر الله . . فإننا لا نطمع فى أن نفسر القرآن . . لأن أى تفسير للقرآن متروك للزمن . . وسيظل القرآن يعطى إلى أن تأتى الساعة ، وفى كل زمن سيتسع القرآن تفسيره تفسيرا يتفق مع قضايا الكون كله . . أما الأحكام التكليفية أو منهج العبادة فى القرآن الكريم . . فإنها لاتحتاج إلى تفسير . . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فسرها . . وليس منا من هو أعلم من رسول الله .

فالأمر فى أحكام التكليف والعبادة يتعلق بالثواب والعقاب . . وهذه يتساوى عندما من أدرك عصر النبوة ومن لم يدركه إلى قيام الساعة . . ولذلك كان التفسير كاملا حتى لايبقى هناك شىء غامض فى أمور العبادة . . فلأنها لا تطبق الحياة التى يشير إليها القرآن الكريم . . فالذى يستقبل القرآن الكريم إستقبالا

إيمانيا لايقف أمامه حكم من أحكام العبادة .. ولذلك فإننى أحب أن أقول إن كل مفسر يتعرض للقرآن إنما يسجل خواطره الإيمانية حول القرآن .. وإذا أردت أن أطوف بخواطرى حول القرآن فإننى أجد أن الله سبحانه وتعالى قد طلب منا أن نقرأ الآية .. وقبل أن نفسرها أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. وذلك هو أول لقاء بين المؤمن وبين القرآن .. مصداقا لقوله تعالى : **« فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم »** .. لماذا ؟.

لأن الشيطان عدو للإنسان .. وتتمثل هذه العداوة فى آدم عليه السلام أصل البشرية كلها .. لقد استكبر الشيطان وهو يرى الله يخص الإنسان برحمته فيخلقه بيديه وينفخ فيه من روحه .. ويجعله خليفته فى الأرض .. استكبر الشيطان كيف يفعل الله هذا لآدم ويتركه هو .. وهو الأكثر قدرة بحكم خلقه من نار .. وعندما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم رد الشيطان الأمر إلى الله .. لم يعصه فقط .. بل وضع نفسه فى موضع متساوٍ لله سبحانه وتعالى .. لم يعصه فقط .. بل وضع نفسه فى موضع متساو لله سبحانه وتعالى .. وقال : **« خلقتنى من نار وخلقته من طين »** .. **« أأسجد لمن خلقت طيناً »** .. وكان الشيطان ممثلا فى إبليس .. فطرده الله من رحمته ..

● ● ●

إذا أردت واتجهت بنيتك أن تقرأ القرآن الكريم .. فتقدم لذلك بأن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. لماذا ؟ هذا أمر طبيعى .. فالذى يبعدك عن المنهج ويحاول أن يوسوس لك بعمل الشر .. ومعصية الله هو الشيطان .. ذلك لأن الشيطان عدو للإنسان .. وعداوة الشيطان للإنسان مسبقة .. ومنذ الخلق .. وهى تتمثل فى عدواة الشيطان لآدم عليه السلام .. وذلك حينما استكبر الشيطان عن أمر الله بالسجود لآدم .. وقال خلقتنى من نار وخلقته من طين .. وقال **« أأسجد لمن خلقت طيناً »** .. وهكذا جاءت عداوة الشيطان من أنه يعتقد أن الإنسان أقل منه .. وأنه يعتبر الإنسان من مادة أدنى من المادة التى خلق منها

الشيطان . . ومن هذا جاء الاستكبار . . وكانت معصية إبليس لأمر الله . . فأعلن سبحانه وتعالى طرده من رحمته . . وسماه رجيما مبعدا .

معصية الشيطان

ومعصية الشيطان تختلف عن معصية البشر . . فالشيطان عصى الله سبحانه وتعالى . . ورفض أمر السجود لآدم . . وكانت هذه معصية . . وآدم عصى الله وأكل من الشجرة . . وهذه معصية . . ولكن كلتا المعصيتين مختلف تماما . . فالشيطان حين عصى واستكبر على الله سبحانه وتعالى . . وأصر على المعصية . . وقال : « **لأغوينهم أجمعين** » . . وتحدى وأمعن فى التحدى . . ورفض أن يعترف أنه على خطأ . . بل رد الأمر على الآمر وهو الله سبحانه وتعالى .

أما آدم عليه السلام فإنه حينما عصى اعترف بذنبه وتاب إلى الله . . ولم يصر على ما فعل . . بل قال يا ربى إنى إنسان ضعيف أغوانى الشيطان وأذلنى . . وأننى يارب أعلم أنك أنت الحق . . وأن قولك الحق . . وأن منهجك الحق . . ولكن نفسى ضعيفة . . لم تحتمل المنهج فوقعت فى الخطأ . . وإنى أعود إليك ياربى تائبا . . نادما . . مستغفرا .

كان هذا هو منهج آدم . . اعترف بألوهية الله . . واعترف بعظم الذنب والتوبة عنه . . والتعهد بعدم العودة إليه . . أما إبليس . . فإنه على عكس ذلك . . لم يعترف بذنبه . . بل أصر على المعصية . . وأصر على أن رأيه هو الحق . . وأنه لم يخطىء . . وأنه حين يرد أمر الله فإنه يفعل ذلك وهو يعتقد أنه على صواب . . ولذلك أبعده الله وطرده من رحمته . . فبماذا قابل إبليس هذا الطرد ؟ قابله بإمعان فى التحدى بأن قال : « **فبعزتك لأغوينهم أجمعين** » . . ولكنه حتى وهو فى المعصية . . كان يعلم أن أمر الله نافذ ولذلك قال « **بعزتك** » . . من باب العزة لله لأن الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين . .

ولذلك جاء من هذا الباب .. باب غنى الله سبحانه وتعالى عن كل خلقه وعدم حاجته إليهم .. أقسم إبليس .. ولم يجد منفذا ينفذ منه إلى البشر .. إلا بعزة خالقهم عنهم وعدم حاجته إليهم ..

ولو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون كل الخلق طائعين له .. مهتدين لمنهجه .. لمااستطاع إبليس أن يقترب منهم .. ولذلك استثنى فقال : « **إلا عبادك منهم المخلصين** » .. أى أن الذى يريده الله ويصطفيه عبدا مخلصا له .. لا يستطيع إبليس أن يصل إليه .. لأن سلطان الله يمنعه .. ومعنى قول إبليس « **بعزتك** » .. إنك ياربى لو أردتهم خاضعين للهداية بأمرك أنت .. وبدون إرادة منهم .. ما استطعت أن أصل إلى واحد من البشر .. ولكنك تركت أمر الهداية للاختيار .. فالذى هو مخلص فى هدايته .. أنا لا أستطيع أن أقترب منه .. أما الذى لم تدخل الهداية إلى قلبه لتصبح يقينا .. والذى ينظر للدنيا بعين .. والآخرة بعين .. فأنا سأحاول أن أغويه لينظر إلى الدنيا وحدها .

حديث قدسى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ان الله عز وجل قال : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك .. فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى .. فأنا منه برىء .. وهو للذى أشرك » .

الفصل الثالث

منهج السماء واحد

ما هى طرق اغواء الشيطان للإنسان المؤمن ..؟ لقد بينها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم وهى كما يلى : « **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** » .. أى أن إبليس لا يبذل جهده لمن باع نفسه للمعصية .. وانطلق يخالف كل ما أمر به الله .. فالنفس الأمارة بالسوء لها شيطانها .. وهى ليست محتاجة إلى إغواء لأنها تأمر صاحبها بالسوء .. لذلك فإن إبليس لا يُذهب إلى الحانات مثلا أو بيوت الدعارة .. ويبذل فيها جهدا لأن هذه لا تحتاج إلى جهد منه .. فكل من ذهب إلى هذه الأماكن فإنما هو ذاهب إلى معصية .. وليس فى حاجة إلى إغواء .. وقد اختار هذا الطريق .. ولكن إبليس يذهب إلى مهابط الطاعة .. أو أماكن العبادة .. هؤلاء الذين يبذلون إبليس معهم كل جهده .. أو كل حيله وإغوائه .. ليصرفهم عن عبادة الله .

ولذلك لم يقل إبليس فى حديثه لأقعدن لهم على الطريق المعوج .. لأن الطريق المعوج لا يحتاج إلى جهد .. لأنه بطبيعته يتبع الشيطان .. ومن هنا فإن إبليس يغوى أهل الطاعة لا أهل الشر والفساد .. بأن يزين لهم المعصية .. أو يغريهم بمد أيديهم إلى المال الحرام .. أو يزين لهم أمرا من أمور الدنيا التى نهى عنها الله سبحانه وتعالى .

وقصة إبليس فى غواية آدم .. لعل فيها الشرح الكافى .. فآدم عاش فى جنة يجد فيها كل ما يطلب .. بلا تعب .. وبلا عمل .. وحرمت عليه شجرة واحدة من الجنة كلها التى فيها ألوف الأشجار تعطى كل الثمرات .. فجاء إبليس ليغرى آدم على المعصية .. فأخذ يزين له هذه الشجرة .. ويزين له مخالفة أمر الله .. ويقول له : « **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** » .. ثم قال : « **هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** » .

وهكذا كانت الغواية فى أن إبليس صور لآدم أن الله قد منعه من هذه الشجرة

ليمنع عنه خيرا . . فلما صدق آدم إبليس . . عرف أن الله قد منعه من الشجرة لأنه يريد له الخير . . وكان هذا رحمة من الله سبحانه وتعالى أن يبلغنا حتى نفطن إلى طريق إبليس إلى الغواية . . فلا خير فى خير يؤدى إلى النار ومعصية الله . . ولا شر فى شر يؤدى إلى الجنة وطاعة الله .

وهكذا أراد الله أن يلفتنا لفتة كريمة إلى أنه اختار للإنسان طريق الخير والحياة الكريمة فى الأرض . . ورسمه له وبينه . . ولكن الشيطان يأتى ويزين لنا طريق الباطل ، ويحاول أن يصور أن فيه خيرا . . فإذا سقط الإنسان فى الشر . . هرب إبليس ونال الإنسان جزاءه . . فالذى يسرق مثلا لا يعتقد أبدا أن أمره سينكشف . . ذلك لأنه لو فكر لحظة واحدة فى أن أمره سينكشف . . وأنه سيلاقى جزاءه لتردد كثيرا فى أن يسرق . . ولكن الشيطان يقول له مد يدك وخذ هذا المال . إن أحدا لن يراك . . وتستطيع أن تفوز به دون عقاب . . ويدله على طريقة للتزييف والتزوير مثلا . . ويقنعه بأن أحد لن يكشفها . . والقاتل حين يقدم على جريمته . . فإنه يقدم عليها وهو معتقد أن أحدا لن يراه ولن يكشف أمره . . ولذلك فإن الطرق الحديثة فى مكافحة جريمة التخريب مثلا . . تقتضى أول ما تقتضى أن يبقى كل من فى المكان حتى ينتهى الاحتفال تماما . . لأنه من النادر أن يضع أحد قنبلة لينسف بها نفسه . . لذلك فإنه إن لم يؤمن تماما أنه سينجو فإنه لن يقوم بهذا العمل . . وكذلك كل الجرائم الأخرى . . يزين الشيطان للإنسان أنه سيفلت منها . . ويظل يوسوس له ويقنعه حتى يقتنع . . ثم بعد ذلك ينكشف أمره . . فيهرب الشيطان ويتركه يواجه مصيره .

حكم العقل

ولو أن آدم قد حكم عقله لعلم كذب منهج إبليس . . فإبليس كما يدعى يدله على شجرة الخلد . . ولو كان حقيقة أن هذه الشجرة شجرة الخلد لما قال إبليس لله سبحانه وتعالى « **انظرنى إلى يوم يبعثون** » . . ولما طلب منه أن يبقى على

حياته إلى يوم القيامة . . بل لأكل من شجرة الخلد ونال الخلد وأصبح غنيا عن الله سبحانه وتعالى . . ولكن إبليس دخل من ناحية الغفلة فى النفس البشرية . . واستطاع أن يقود آدم إلى المعصية .

وكما دخل إبليس من ناحية الغفلة لآدم . . دخل من ناحية الغفلة لأبناء آدم . . ولو أن أبناء آدم حكموا عقولهم . . وتذكروا أن هناك عدواة سابقة بين آدم وإبليس . . وأن إبليس طرد من الجنة بسبب آدم . . وأنه طرد من رحمة الله بسبب آدم . . ولذلك فهو عدو لآدم وذريته حتى يوم القيامة . . ولعرفوا أن إبليس طلب من الله سبحانه وتعالى ليمهله إلى يوم البعث لينتقم من آدم وأولاده بإبعادهم عن الطريق المستقيم . وإغوائهم على معصية الله . فإذا عرفنا ذلك أخذنا حذرنا منه . . وحين نأخذ حذرنا وتنكشف وسوسة الشيطان . . فإنه يهرب .

إبليس والإفساد

وشرح إبليس كيف سيفسد الصراط المستقيم . . وقال « **لآتينهم من بين أيديهم** » يعنى من أمامهم « **ومن خلفهم** » وهذه جهة ثانية . . « **وعن ايمانهم** » وتلك جهة ثالثة . . « **وعن شمائلهم** » وهذه جهة رابعة . . ولكن الجهات ست وليست أربعا . . فما هما الجهتان الباقيتان اللتان لا يأتى منهما الشيطان . . هما فوق وتحت .

لماذا هرب إبليس من هاتين الجهتين بالذات . . ولم يقل سيأتى من فوقهم ومن تحتهم . . لأنه يعلم أن الجهة الفوقية تمثل الفوقية الالهية . . ولذلك ابتعد عنها . . وأن الجهة السفلى جهة السجود تمثل العبودية البشرية حيث يسجد الإنسان لله . . ولذلك يبتعد إبليس عن هاتين الجهتين تماما . . وأنت إذا ما نظرت إلى ما يروجه الملحدون فى كل عصر نجد عجبا . . نجد كل هذه الجهات الأربع مذكورة عن الملحدين ، ما عدا الجهة العليا والجهة السفلى . . فأحدهم يقول عن نفسه تقدمى . . أى جهة الأمام . . والثانى يقال عنه رجعى

أى جهة الخلف . . آخر يقال عنه يمينى . . جهة اليمين . . وآخر يقال عنه يسارى . . جهة اليسار . . ولكن لا أحد من المذاهب الالحادية يسمى نفسه فوقى . . لأن المستوى الفوقى هو للألوهية . . ولا يسمى نفسه تحتى لأنه مكان السجود للعبودية . . ونحن نقول لكل أصحاب هذه المذاهب نحن لسنا تقدميين ندعو إلى التحلل . . ولا رجعيين نرفض أن نتقدم خطوة إلى الأمام مع الزمن . . ولا يمينيين على عرف العصر . . ولا يساريين أيضا على عرف العصر . . وإنما نحن أمة محمدية فوقية . . كل أمورها تأتى من الفوقية الالهية .

ميزة الإسلام

ولابد أن نشرح هذه النقطة قليلا . . نحن أمة محمدية فوقية . . تعبد الله بإعلان عبوديتها وخضوعها له . . ولذلك حين نتبع هذا المنهج . . منهج السماء . . نكون قد تميزنا عن البشر جميعا . . كيف ؟ . . لأن كل إنسان فى الدنيا لا يخضع لله سبحانه وتعالى . . ولا يأخذ منهجه عنه . . هو خاضع لمنهج بشرى . . وضعه مساو له من البشر . . والبشر له هوى . . وفى كل نفس بشرية هوى تريد أن تحققه . . ولذلك فهى تضع المنهج الذى يمكنها من أن تتميز على الناس . .

وإذا نظرت إلى أى منهج بشرى وجدت أنه يحقق الفائدة لمن وضعوه . . ويقدم لهم ميزات فوق ميزات غيرهم . . فذلك هو طريق البشر . . طبقة تضع منهجا لتتميز به عن الآخرين وتستفيد هى وحدها . . وقد يكون هذا المنهج من وضع مجموعة أفراد وليست طبقة . . ولكن المهم فى هذا كله أن الفائدة تعود على عدد محدود من الناس هم واضعو هذا المنهج . . ولكنك إذا خضعت لحكم الله . . فاعلم أنك خاضع لغير مساويك . . والله سبحانه وتعالى لا هوى له . . فهو غنى عن العالمين . . أنت محتاج إليه . . وهو غير محتاج لك .

ولذلك حين يضع لك منهجا فإنه يضع هذا المنهج ليعطيك الخير . . ولا يضعه ليمنع عنك خيرا . . أو ليستأثر هو بالخير . . لأنه أولا هو مصدر الخير

كله . . وثانيا هو غير محتاج لما تملك ولا ما يملك البشر جميعا . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى المنزه عن الهوى إذا وضع المنهج . . فلا ذلة . . لماذا ؟ . . لأنه يضع المنهج بقواعد ثابتة تسرى على الجميع . . فأنت خاضع لمنهج الله سواء كنت تربح قروشا قليلة لا تكاد تكفيك أو عندك مال الدنيا . . ولا ذلة ، لأنك أنت ومن هو أعلى منك خاضعون لمنهج السماء . ولذلك فعندما تتبع منهج الله تعيش عزيزا . . مرفوع الرأس . . ماضيا فى طريق الحق . . والله لا يأخذ منك ولكن يعطيك ويفتح لك . . لا يذلك ولكنه يعزك .

النبى الأمى

ربما كانت تلك الحكمة هى التى أدت إلى أن يختار الله سبحانه وتعالى نبيا أميا . . لم يتعلم . . ذلك أن الله حينما اختار رسوله من البشر . . والرسالات فى تبليغها للناس لابد أن تتم عن طريق البشر . . فبشرية الرسول ضرورة حتمية فى رسالات الله إلى أهل الأرض . . لأن الرسالة السماوية تمثل النظرية . . وحياة الرسول الكريم تمثل التطبيق . . وإذا لم يكن الرسول بشرا كان ملكا . . أو من هو فوق قدرة البشر . . لقال الناس كيف نتبع ملكا ونحن بشر . . إن هذا الملك له قانونه . . وهو مخلوق من نور ونحن مخلوقون من طين . . هو يستطيع أن يعيش بلا طعام فلا يأكل ولا يشرب . . ولكن نحن لابد أن نبحث عن الرزق لنطعم أنفسنا وأولادنا . . ولا يحتج بعضهم بأن عدم بشرية الرسول تجعل تطبيق المنهج مستحيلا . . ولكن كون الرسول بشرا . . وكونه بشرا من بينهم يعرفه قومه خير المعرفة ، يبطل هذه الحجة . . ويجعل تطبيق المنهج سهلا وميسرا . . لأن الذى يقوم به بشر . . إذن فالمنهج فى قدرة البشر . . وهكذا فإن بشرية الرسول حتمية لسلامة التطبيق .

● ● ●

فإذا كانت بشرية الرسول حتمية . . فلماذا اختار الله سبحانه وتعالى محمدا أميا لا يقرأ ولا يكتب ؟ معنى أمى . . أى كما ولدته أمه . . لم يأخذ ثقافة من

بشر . . فلا هو تثقف على الشرق . . ولا هو تثقف على الغرب . . ولا هو قرأ لفيلسوف . . ولا اطلع على نظرية انسان . . بل هو لم يقرأ كلمة فى حياته . . عندما يأتى هذا الإنسان بكل هذا الاعجاز القرآنى فهو لا يمكن أن يأتى به من ذاته . . لأنه غير مؤهل لذلك . . ولابد أنه أتى به من الفيض الالهى . . من فوق .

إذن فالأمية شرف لرسول الله ودليل على صدق رسالته . . وليست مهانة لأمثالنا . . بل إن اختيار الله سبحانه وتعالى للعرب فى جاهليتهم ليكونوا هم أمة القرآن له حكمة . . فلو نزل هذا القرآن فى أمة متحضرة فى ذلك الوقت . . كفارس أو الروم . . لقالوا التقاءات حضارية . . وهبات عقلية . . وموجات إصلاحية . . قام بها أناس عن حضارة وثقافة . . ليقودوا حركة الحياة .

ولكن الأمية التى جاءت لتحجب الفكر البشرى عن رسول الله . . والجاهلية التى جاءت لتحجب الرؤية الحضارية عن رسول الله . . إنما جاءت أيضا لتؤكد أن هذه الرسالة هى من السماء . . وأنه لا دخل للأرض فيها . . ومادام ليس للأرض دخل . . ولا لثقافتها وحضارتها مكان . . فالذى قاله هذا قرآن أوحى إليه من السماء .

والله سبحانه وتعالى حين منع رسول الله بالأمية من ثقافات ومعطيات عقول البشر . . وصله بالعلوية التى تعلم البشرية ما لم تعلم .

مدرسة الرحمن

ويحضرنى هنا لقاء الغار . . حينما نزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام مع الملك جبريل وضمه بقوة وقال : « **اقرأ** » . . ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يرتعد من الضمة . . « **ما أنا بقارىء** » . . نقول إنه لا تعارض بين الاثنين .

فالرسول حينما قال ما أنا بقارىء . . أخذ بالأسباب البشرية فى أنه لم يتعلم القراءة والكتابة . . ولذلك كان صادقا مع نفسه . . وأمام ربه . . والله سبحانه وتعالى حينما قال لرسوله : « **اقرأ** » . . لم يأخذ بالأسباب الأرضية . . بل أخذ

بالأسباب العلوية .. أى يا محمد ستقرأ .

ولكنى لن أرسلك إلى معلم أو مدرسة تتعلم فيها القراءة .. ولكنك ستقرأ باسم ربك .. أى العلم الذى سيأتيك هو من الله سبحانه وتعالى .. وهو علم يحيط بعلم البشرية كلها .. ولكنه لا يحتاج منك لأن تتعلم القراءة والكتابة .. لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى سيعلمك .. وسيعلمك ما لم تعلم .. فالعلم مصدره الله .. وهكذا كان الاعجاز فى الآية الأولى التى نزلت من القرآن تطلب من نبى أمى أن يقرأ .. والنبى وهو يرتعد من ضمة الملك جبريل يقول : ما أنا بقارىء .. فيأتى الله سبحانه وتعالى ليقول له : أنت ستقرأ وأنا الذى سأعلمك علما من عند الله .. من السماء .. لا علم بشر .

● ● ●

وهكذا كانت قضية بشرية وأمية الرسول تقتضى كمعجزة أن المنهج صالح لحياة البشر .. وأن العلم القادم ليس هو من نتاج لقاءات العقول .. بل علم من السماء .. ولذلك تحدى الله سبحانه وتعالى أن يأتى أحد بسورة مثله .. وكان هذا التحدى خروجا بالقرآن عن القدرة البشرية .. ذلك أنه حسب علم البشر يأتى إنسان يخترع شيئا .. ثم يأتى بشر آخر بمثل هذا الشىء ويزيد عليه .. وكلما تقدم الزمن وكشف الله لعباده عن علم الأرض جاءت الزيادات بعد ذلك .. ولكن القرآن الكريم لأنه من السماء بقى إعجازا أربعة عشر قرنا .. وسيبقى إعجازا أبديا .. ولذلك نجد أن الأمة الإسلامية قد استطاعت بهذا العلم الإلهى أن تسود الأرض كلها .. وأن تقضى على حضارتين كانتا على قمة ما صنع البشر فى الأرض فى ذلك الوقت وهما الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية .. كيف تم ذلك ؟..

هل استطاع القرآن أن يعطى للعرب سلاحا بشريا يفوق أسلحة هذه الدولة .. أم كشف عن سر القنبلة الذرية مثلا .. لم يحدث ذلك أبدا .. إنما

جاء هذا الدين الجديد بمنهج من السماء . . إذا اتبعناه سدنا الأرض . . لماذا ؟ . . لأنك وضعت منهجا سماويا مقابل منهج أرضى . . ولذلك فإن المنهج الذى ساد به العرب الأرض . . لم يكن منهجا من وضعهم أو اختراعهم . . ولو كان منهجا بشريا لانهزم أمام الروم والفرس . . ولكنه منهج علوى من السماء .

معصية إبليس

نعود بعد هذا الايضاح إلى معصية إبليس . . لماذا قال الشيطان أنه سيغوى البشر . . ولماذا نشأت هذه العداوة الرهيبة . . أولا لأن الله فضل الإنسان على سائر المخلوقات وجعله خليفة له فى الأرض . . وسخر له الأرض والسماء . . وميزه باختيارية العبادة . . أى أنه يأتى إليه طائعا مختارا عن حب وود . . والشيطان يريد أن يفسد كل هذا لعدواته للإنسان . . وزاد الحقد حين اتخذ آدم سبيل التوبة طريقا لغفران ذنب المعصية . . ومضى إبليس فى تكبره واتخذ طريق الكبر والمكابرة . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد غفر لآدم . . وتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . . إذن فآدم وإبليس دخلا فى المعصية ولكن بطريق مختلف . . أولهما هو آدم تاب إلى الله واعترف بذنبه وضعفه . . فأعطاه كلمات يتوب بها ويعود إلى منهج الله . . وإبليس أصر على المعصية وأمعن فى المكابرة ، وبدلا من أن يعود إلى الله قال لأغوين هذا الذى فضلته على .

● ● ●

وإبليس دائما يأتى من الباب الذى يرى فيه المنهج ضعيفا . . فإذا وجد إنسانا متشددا فى ناحية يأتى من ناحية أخرى تكون ناحية ضعف . . فإذا كان الإنسان متشددا فى الصلاة يحافظ عليها ويؤديها فى أوقاتها . . جاء إبليس من ناحية المال فيوسوس له حتى لا يخرج الزكاة ، ويقتر ويأكل حقوق الناس . . مدخلا السرور إلى نفسه بالوهم ، بأن هذه الطريقة تزيد ما عنده وتجعله غنيا آمنا مطمئنا . . والحقيقة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما نقص مال من صدقة) .

والصدقة هى التى تكثر المال . . وتضع بركة الله فيه . . وتجعله يزداد وينمو . . والمال هو مال الله ينتقل من يد إلى يد فى الدنيا . . وحينما يحين الأجل يتركه الإنسان ويمضى . . ولكن بعض الناس يغفل هذه الناحية ولا يتذكرها . . فحينما يجد إبليس إنسانا متشددا فى الصلاة محبا للمال . . جاءه من ناحية ضعيفه فيمنعه من الزكاة ، ثم يزيد هذا الضعف بأن يغريه بالمال الحرام .

وتبدأ المعاصى التى تنسج عودا عودا كما ينسج الحصير ليغطى القلب كله وتمنعه عن ذكر الله . . وإذا وجد إبليس فى العبد المؤمن تشددا فى الصلاة والزكاة وضعفا من ناحية المرأة مثلا . . أتاه من ناحية هذا الضعف ، فيظل يزين له إمرأة خليعة ويزينها فى نظره . . ويوسوس له ويوسوس لها حتى يسقط فى الحرام . ومتى سقط فى الزنا سقط فى الكبائر .

فإذا كان قويا فى هذه النواحى كلها جاء إبليس وزين له الخمر أو مجلس السوء أو النميمة . . المهم أن إبليس يترك نقطة التشدد فى الإنسان ويأتيه من نقطة ضعفه حتى ينفذ إليه من نقطة الضعف . . ومتى نفذ بدأ ينسج الحصير عودا عودا .

ولذلك تجد هناك فارقا بين معصية يوحى بها الشيطان ، ومعصية تصر عليها النفس . . فإذا حدثتك نفسك بمعصية ووقفت عندها وأصررت عليها . . فاعلم أنها هى التى تحاول أن تقودك لمعصية من هذا اللون بالذات . . لأن النفس تريد من صاحبها أن يكون على لون خاص يحقق لها رغبة أو شهوة . . ولكن إبليس ليس على هذا المنوال . . فإبليس يريد المؤمن عاصيا على أى شكل من أشكال المعصية . . ولا يهمه نوع معين من العصيان فى ذاته . . فإذا طرق لك بابا وجدك فيه متشددا متمسكا لا تصغى إليه . . انطلق يطرق بابا آخر فيه نقطة ضعف . . وهكذا يظل يتنقل من باب إلى باب حتى تسقط فى قبضته وتستمع إليه .

إغواء وخداع

وقد فصل الله أمر الشيطان . . فطرده من رحمته وجعله رجيما مبعدا ، وهو يعرف أن مصيره النار . . وإياكم أن تظنوا أن الشيطان حين يغوى الإنسان يأتى له عن طريق شر يضره . . بل ربما يلبس هذا الشر لباسا خادعا ليقع فيه . . فاللص مثلا إذا أراد أن يسرقك لا يأتى إليك ويقول لك أنا سأسرق ما فى جيبك . . بل ربما دفعك إلى الأرض ثم يتقدم منك ليرفعك من المكان الذى سقطت فيه . . وفى هذه اللحظة أنت تظن أنه يعمل خيرا وأنه يعينك على النهوض بعد أن سقطت على الأرض . . فى هذه اللحظة يكون هو قد ارتكب الشر وسرق حافظة نقودك .

إذن هو غلف عمله الشرير بلباس من الخير ظاهرى . . لكن يأتى إلى شيخ مثلا . . يحمل حقيبة ثقيلة . . ويعرض عليه أن يحملها عنه ليعينه حيث أن هذا الشيخ ضعيف لا يقدر على حمل الحقيبة ولكن ماذا يحدث ؟ . . أنه بعد أن يأخذ الحقيبة ليحملها يغافل صاحبها ويهرب بها . . عمل ظاهره الخير وحقيقته الشر .

وهكذا الشيطان يغريك على مال حرام مثلا . . ويوسوس إليك أنك محتاج لهذا المال وأنك ستأخذه كسلفة وتعيده عندما يتيسر حالك فى القريب العاجل . . وتفعل أنت ذلك . . وتمد يدك . . عمل ظاهره خير لك تفرج به أزمتك وترد المال . . ولكنك لا تستطيع أن ترده . . بل إنك تحس أن هذه الطريقة سهلة وتمضى فى الطريق إلى المعصية .

فلا تحسب أن الشيطان أبله بحيث يأتى لك بصورة الشر على أنه شر ويذكرك بالعذاب . . بل أنه يتسلل لك على أساس أنه خير لك . . وإذا كان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم . . فإن الله سبحانه وتعالى قد شاء من رحمته أن يكشف لنا أسلوبه حتى نستطيع أن نقى أنفسنا منه . . وأحسن ما يقى الإنسان هو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم . . لأن الشيطان يخلخل فيك منهج

الله . . فالشيطان لا يتركك أبدا مادمت أنت على الطاعة يحاول أن ينفذ إليك من ناحية بعد الأخرى حتى يوقع بك . . ولذلك فإن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم . . تزيدك فهما للقرآن واحساسا بآياته . . وهذا يقربك من الله .

استيعاب القرآن

والقرآن الكريم هو عطاء من الله سبحانه وتعالى لعباده . . والله فى عطائه يساوى بين جميع الخلق . . فعطاء القرآن متساو . . ولكن كل إنسان يأخذ على قدره . . فالقرآن يقرأ والناس تسمع . . ولكن هل يتقبل الجميع القرآن بنفس القبول . . لقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ ﴾

(سورة محمد)

والقرآن هدى ورحمة . .

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ ﴾

(سورة فصلت)

فعطاء القرآن واحد ولكن الفرق فيمن يستقبلون القرآن . . قلب مؤمن يستقبل عطاء القرآن بشكل مختلف تماما عن القلب غير المؤمن . . إنسان متعبد للقرآن فى نفسه قبول للآيات بينما الإنسان غير العابد لا يفقه شيئا من القرآن الكريم .

ولكى نوضح هذه النقطة قليلا . . أنت مثلا عندما تخرج فى الشتاء من

منزلك . . وتجد الجو باردا وتنفخ فى يداك حتى تدفئها من البرد . . وعندما يأتى لك كوب شاى ساخن . . وتريد أن تقلل من سخونته تنفخ فيه . . الفعل واحد ولكن متقبل الفعل مختلف . . ولذلك مرة قمت بالفعل للتدفئة ومرة قمت بنفس الفعل للتبريد . . ولذلك عندما تقرأ القرآن أو تستمع إليه . . لابد أن تنقى النفس المستقبلة للقرآن وتجعلها صافية . . وأحسن صفاء للنفس هو أن تخلصها من الشيطان وأقول ما تخلص به نفسك من الشيطان هو أن تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . وبذلك تكون قد استعذت بالله وكان الله معك . . فإذا صفيت نفسك لاستقبال القرآن . . فإن آياته الكريمة تمس قلبك ونفسك . . ويكون لك هدى ونور . . وأنت إذا استعذت بالله من أى شيطان أو أى مكروه فانك بذلك تجعل الله إلى جانبك . . فإبليس من خلق الله وأنت من خلق الله . . فإذا واجهتما بعضكما كانت الغلبة لمن هو أكثر قوة أو أكثر حيلة . . ذلك لأن كلا منكما يعتمد على ملكاته الشخصية فى مواجهتكما معا . . ولكن إذا استعاذ أحدكما بالله كان الله فى جانبه . . والشيطان لا يمكن أن يستعيذ بالله أو يستعين فى عمل من الأعمال . . إذن فأنت صاحب الميزه لأن الشيطان مطرود من رحمة الله . . رجيم ومبعد . . فهو إذا استعان استعان بذاتيته أو بما منحه الله من صفات خلقه . . ولذلك مهما كانت قدرة الشيطان أو قوته . . فإنك إذا استعذت بالله من الشيطان الرجيم تكون أنت الأقوى ويكون النصر فى جانبك . . لأن الله عندما يكون معك فى هذه اللحظات تكون قدرتك وقوتك فوق كل قدرة وأعلى من كل قوة . . ولذلك عندما ينفرد الخلق بالخلق تكون الغلبة للقوى .

ولكن عندما يذهب مخلوق إلى خالقه ويستعيذ به ويستعين به يكون هو الأقوى رغم ضعفه . . ويكون هو الغالب رغم عدم قدرته . . وإذا بعد اثنان من البشر عن الله أصبح كل منهما يعتمد على قوته الذاتية . . فإذا استعان أحدهما بالله انقلبت الآية تماما . . ولذلك فعندما تقرأ القرآن لابد أن تصفى جهاز استقبالك . . ليس لقدرتك أنت ولا الاستعانة بقوتك . . ولكن بقدرة الله .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى أن الشيطان سيأتى يوم القيامة ليقول : « وما كان لى عليك من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » .

وبهذا يكشف لنا الله سبحانه وتعالى سرا آخر عن إبليس . . هو أنه ليس له سلطان . . أى أن إبليس لا يستطيع أن يقهر أحدا على المعصية ولكنه يغريه . . فإذا استجاب سقط . . وإذا استعان بالله نجا . . والشيطان لا يستطيع أن يقودك إلى الشر رغما عنك . . ولكن باختيارك . . بوقوعك فى اغرائه واستجابتك له . . لذلك يتم الحساب على ما ترتكبه من المعاصى باغواء الشيطان . . ولو أن إبليس له صفة القهر أو سلطة اخضاع الإنسان دون ما ارادة منه لسقط الحساب . . فنحن نعلم جميعا أن الحساب لا يتم على أمور جبرية لا يملكها الإنسان فيها حق الاختيار . . والقهر يسقط الحساب عن البشر . . ولكن الذى يتم على أساسه الحساب هو أمر اختيارى تستطيع أن تفعله أو لا تفعله بإرادة منك . . وهنا يكون الحساب عدلا . . لأنك أنت الذى اخترت . . وهكذا يريد الله سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى نقطة هامة أن وسوسة الشيطان بالشر ليس فيها القهر . . ولكن فيها الاختيار . . والله سبحانه وتعالى يعطينا فيها القدرة على أن نختار . . وأن نفعل أو لا نفعل . . ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى كيد الشيطان بأنه ضعيف . . لماذا ؟ . . أولا لأن معك قوة الله وقدرة الله تستطيع أن تستفيد بها . . وثانيا لأن الأمر هنا اختيار لا إجبار . . فليس هناك قهر . . ولو كانت نفسك قوية لاستطعت أن تتغلب عليه . . وإبليس لا يستطيع أن يرغمنا على عمل . . ولا يملك الحجة الصحيحة لاقناعنا بإثم . . ولكن المسألة أنه يملك النفس الضعيفة ويستطيع أن يغريك أو يوهمك بشىء كاذب . . حتى إذا ارتكبته وجدت أن النتيجة غير ما قال . . رغم ذلك فإن التهافت على الدنيا والتكالب عليها . . يدفعنا إلى ألا ننتبه للغفلة فيدخل الشيطان حياتنا مرات ومرات .

أعوذ بالله

فإذا استعذت باسم الله من الشيطان الرجيم . . فانك يجب أن تبدأ باسم الله

الرحمن الرحيم . . ولذلك قال رسول الله (**كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر**) يعنى مقطوع الذنَب . . وهذا لا ينطبق على القرآن الكريم وحده . . بل على كل عمل يصادفك فى حياتك . . لأنك حين تبدأ باسم الله فإنك تطرد الغرور من قلبك . . ذلك أنك كما قلنا يمكن أن تبدأ العمل معتمدا على قوتك الذاتية . . وفى هذه الحالة تبدأ والغرور يملؤك بأنك تستطيع أن تحقق ما أنت مقدم على عمله بقوتك الذاتية . . فكأنك استغنيت عن الله وابتعدت عنه . . ويظل الغرور يملأ قلبك فتصدق الأكذوبة الكبرى فى أن يستطيع أن يصنع قدره ومستقبله . . ولكن إذا استعذت بالله وبدأت العمل ذاكرا اسم الله سبحانه وتعالى . . فأنت فى هذه الحالة تتذكر أنك بدون الله غير قادر . . وأنه إذا سلبْ عنك عونه وبركته وقدرته فإنك تصبح عاجزا عن أن تفعل شيئا . . وقرب الإنسان من الله وشعوره بحاجته إليه فى كل لحظة وثانية هوالذى يقرب الإنسان من الله . . ولقد سئل آل بيت رسول الله لماذا لا تطلبون الغنى . . فقالوا نحن قوم نحب أن نجوع فنطلب . . ونعطى فنشكر . . وهذه العبارة تحمل رغبة الطلب فى دوام الصلة بالله . . فالإنسان إذا أحس أنه يستطيع أن يحقق لنفسه ما يريد . . فإذا أصابته نعمة من الله نسبها لنفسه . . وادعى أنه يستطيع أن يحصل على الرزق بقدرته هو . .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : **« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه »** .

ما معنى هذه الآية الكريمة . . معناها إذا أنعم الله سبحانه وتعالى عليه بنعمة نسبها لنفسه فأعرض عن الله بدلا من أن يشكره . . لماذا ؟ لأنه حقق شيئا بما أعطاه الله من علم فى الأرض .

ونوضح هذه النقطة قليلا . . الإنسان فى بداية حياته مثلا كان يعتمد على الأمطار فى الرى والزراعة . . فإذا نزل المطر رفع يديه للسماء شاكراً لله نعمه . . وإذا تأخر المطر رفع يديه إلى السماء طالبا من الله رحمته . . كان هذا هو حال الإنسان حتى أنعم الله عليه بشىء من العلم . . فاستطاع أن يبنى سدا لتخزن

خلفه المياه .. فإذا سقط المطر كان هناك فائض خلف السد .. يستطيع أن يستعين به الإنسان فى أوقات الجفاف .. عند هذه اللحظة يحس الإنسان وهما أنه استغنى عن الله .. لأنه إذا تأخر المطر ولم تمطر السماء .. ذهب وفتح عيون السد ليأخذ منه الماء .. وهكذا أنعم الله على الإنسان بأن أعطاه علما يستطيع به أن يقيم سداً ليحجب مياه المطر ويبقيها حتى الموسم القادم .. وكان الرد على ذلك أن الإنسان بدلا من أن يشكر الله على العلم الذى أتاحه له ليجعل حياته أيسر .. بدلا من أن يفعل ذلك نأى عن الله سبحانه وتعالى ونسب العمل إلى نفسه ونسبه إلى قدراته هو .. وكأنه استغنى عن قدرة الله التى أعطته المطر وأعطته العلم ليبنى السد .

وهكذا فى كل مظاهر التقدم والمدنية .. كلما ازداد كشف الله سبحانه وتعالى لآياته فى الأرض للبشر .. ليعطيهم حياة أيسر وأفضل .. ابتعد هؤلآء الناس عن الله .. وبدأوا يتجهون إلى آيات الله فى الأرض ليتخذوها إلها .. ونسمع من يقول انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم .. وكل هذه السفسطة مما يدور على ألسنة بعض الناس فى هذه الأيام .

وبذلك يكون هؤلاء الناس قد نسوا المنعم ، وعبدوا النعمة .. ونقلوا إلى قدراتهم الذاتية ما كشفه الله لهم من آياته فى الأرض .

وحين يبدأ الإنسان قراءة القرآن الكريم ، يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. ثم يبدأ باسم الله الرحمن الرحيم .. والعمل الذى لا يبدأ باسم الله عمل أبتر .. أى ليس كاملا .. ليس فيه الدنيا وليس فيه الآخرة .. أى أنه ينطبق عليه قول الله « **خسر الدنيا والآخرة** » لماذا ليس فيه الدنيا ..؟ لأن عدم ذكرك الله يجعلك تعتمد على قوتك الذاتية .. أنت هنا لا تستعين بالقادر .. وكذلك تعتقد أنك ألصق بهذا العمل .. رجل ذكى يستطيع أن يصنع قدره .. رجل استغنى عن الله .. لأنه يبدأ عمله دون أن يستعين باسم الله .. وهنا

يكون العمل على قدر طاقتك . . والله لا يبارك . . والله لا يوفق مادمت غير مستعين به . . بل يتركك لذاتك .

وهكذا تخسر الدنيا . . لماذا ؟ لأنك إذا بدأت باسم الله كان معك بقدرته وقوته . . كان الله معك يفتح لك الطريق . . ويزيل لك العقبات ويدلك على الخير . . ويحفظك من الشر . . وهذا يتم لا بقدرتك أنت البشرية المحدودة . . ولكن بقدرة الله التى هى بلا قيود . . ولا حدود . . وهكذا تجد نفسك إذا استعنت بالله تجنى أكثر . . وتحقق أكثر . . ولذلك فأنت تخسر فى الدنيا إذا لم تستعن به . . والله الذى ليس كمثله شىء . . وبذلك تكون قد خسرت الجزء الأكبر من الدنيا . . ولم يبق لك فيها إلا قليل تستطيع أن تحققه بذاتك فتجد العناء والتعب والشقاء . . وقد لا تحقق شيئا . . وخسرت الآخرة . . لأنك إذا بدأت العمل باسم الله . . فإن الله جل جلاله يضع لك وقاية من الاثم ومن كل ما يغضب الله .

لا معصية . . مع الذكر

وعندما تبدأ عملا باسم الله . . فانك لا يمكن أن تبدأ بمعصية . . عندما تهم بشرب الخمر ويأتى اسم الله فى بالك . . تجزع وتخاف وتسرع تاركا ما كنت تنوى أن تفعله . . عندما تهم بسرقة وتتذكر اسم الله . . تبتعد نفسك وتبتعد يدك عن المال الحرام . . عندما يعرض عليك إنسان رشوة لا تستطيع أن تقول باسم الله . . هل يرتشى إنسان وهويذكر هذا الاسم الكريم . . تجد نفسك تتردد . . ويدك لا تمتد . . وتذكرك لاسم الله يذكرك بقوانين الله فلا تأخذ الرشوة .

وهكذا فى كل أمور الدنيا مادام ذكر الله على لسانك فإنه يمنعك من المعاصى . . سد بينك وبين الآثام . . إذن فأنت إذا تعودت أن تبدأ أى عمل باسم الله استجبت أن تبدأ عملا يغضب الله ، لأنك لا تبدأ باسم الله إلا فيما أجازه الله أو أباحه الله . . وهكذا أمرنا أن نبدأ بعد الاستعاذة بالله من الشيطان

أن نبدأ عملنا باسم الله . ومستعينين بالله ولننظر إلى الرحمة من الحق فى قوله تعالى : « **باسم الله الرحمن الرحيم** » . . ولنشرحها شرحا يقربها إلى الذهن . . ولماذا أمرنا الله بأن نبدأ بقولنا باسم الله الرحمن الرحيم .

باسم الله

باسم الله . . أى باسم الإله المعبود . . فنحن نذكر الله سبحانه وتعالى . . وأنه الخالق الذى نعبده . . وعبادة الله تأتى بما أعلمنا به الله سبحانه وتعالى من أوامر بافعل ونواه بلا تفعل . . وإذا أردنا أن نعبد الله فإن لله سبحانه وتعالى قوة وقدرة لا تدركها العقول والأبصار . . ومن هنا شاءت رحمته أن يبين لنا الطريق لعبادته . . فلو تركنا الله لأنفسنا لاختلفنا ولوضع كل انسان طريقة لعبادة الله تتفق مع الهوى البشرى . . ولرأيت طرقا متضاربة وأشياء لا تخطر على البال هذا يشرع لهواه . . وهذا يشرع لهواه وضاعت الحقيقة . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل لتبين طريق العبادة للناس . . وقال أنا الله وهذه رسلى . . وإذا أردت أن تعبدنى وتدخل فى طاعتى . . فأنا أريك طريق الهداية . . طريق العبادة . . وهذا طريق الحق . . لماذا ؟ لأننا جميعا من خلق الله سبحانه وتعالى وهو لا يميز بين أحد منا . . نحن متساوون أمامه . محتاجون لما عنده وهو لا يحتاج لما نملك . . لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يضع لك طريق الهداية بلا هوى . . بحيث لا يحمل أحدا ما لا يحمله للآخر . . وبحيث لا يختص أحدا بالمحاباة أو التمييز . . وكل المناهج البشرية التى توضع . . أنها يراعى فيها فائدة البشر . . فالإنسان عندما يشرع . . يحاول أن يستفيد هو من التشريع . . يحاول أن يأخذ منك شيئا . . لكن الله سبحانه وتعالى حينما يشرع فإنه يعطيك ولا يأخذ منك شيئا . . بل يزيدك من فضله . . وهكذا ترى أن التشريع يأخذ من الإنسان . . أماالتشريع الإلهى فإنه يعطى الإنسان ويزيده . . والله يرزق من يشاء بغير حساب .

إذن فحين نبدأ باسم الله . . يريد الله أن يذكرنا بحقيقتين هامتين . . أولاهما

حق العبادة والشكر . . لأنه مادام الله يعطينا طريق العبادة فى الحياة . . وعطاء العبادة فى الدنيا والآخرة . . وهو لا يأخذ منا شيئا . . وإنما هو يدلنا على الطريق الذى نزداد به من فضل الله فى الدنيا وفى الآخرة . . وكما سبق أن وضحت فإن الله سبحانه وتعالى لا يرسل لنا منهج العبادة وفحسب نظريا . . وإنما يرسل لنا التطبيق العملى . . فيرسل بشرا رسولا ليبين لنا منهج العبادة . . وبشرية الرسول هنا حتمية ليكون من نفس الجنس . . حتى لا نجادل ونقول حملتنا يارب ما فوق طاقة البشر .

الرحمن الرحيم

ويمضى الله سبحانه وتعالى ويقول : « الرحمن الرحيم » . . وذلك ليذكرنا بحقيقة أخرى هامة . . هى أن باب الله سبحانه وتعالى مفتوح دائما . . وأنه إذا كنت قد ارتكبت معصية . . أو ضعفت نفسك فى آثم . . أو نسيت الله فى لحظة . . فإن هذا ليس معناه أن الباب أوصد فى وجهك . . بل الله الرحمن الرحيم يقبل التوبة ويغفر للذنوب جميعا . . ولهذا إذا ارتكبت معصية . . فإياك أن تستحى من أن تعود إلى الله وأن تبدأ باسم الله . . لماذا . . لأن الله سبحانه وتعالى لا يعرف الحقد . . ولا يتغير على خلقه . . فالإنسان عندما تعصيه أو تخالف أوامره قد ينفض يده عنك . . وقد ينهى علاقته بك إلى الأبد . . وفى كثير من الأحيان يسعى للإضرار بك . . ولكن الله سبحانه وتعالى إذا عصيته عن ضعف أو نسيان أو زلة . . دون استكبار أو إصرار ، فإنه يفتح بابه لك . . فإذا قلت باسم الله الرحمن الرحيم وعدت إليه . . وجدته رحمانا رحيما . . وجدته يغفر لك المعصية ويزيل عنك الذنب ويطهرك . . لتبدأ من جديد على طريق الله . . إذن فالرحمن الرحيم . . حيثيات اقبال العاصى على أن يعود ويبدأ عمله باسم الله . . حيثيات من الله سبحانه وتعالى . . والذى يريد أن يذكرنا فى كل لحظة أن باب الرحمة مفتوح . . والله سبحانه وتعالى حين شرع عقوبة أى معصية . . معناها أنه أذن لها أن تقع . . فلو لم يكن علم الله سبحانه وتعالى بأن هذه المعصية ستقع . . ما شرع له العقوبة . . وكما شرع العقاب . . شرع التوبة . . ووضع اسم الرحمن الرحيم . . اشتقها من الرحم وهو مكان الجنين فى

البطن . . ولا يوجد من هو أكثر مغفرة فى الدنيا من الأم بالنسبة لولدها . . فالولد قد يخطىء . . ولكن قلب الأم هو دائما غفور لهذه الخطايا . . ولا تجد أما مهما بلغت من خلق سيىء أو جحد للنعمة أوقلب قاس . . لا تجد أما مهما كان فيها من الخصال لا تغفر لابنها إساءاته وعصيانه . . والله سبحانه وتعالى كلما أعطانا شيئا غيبيا . . وأراد أن يقرب هذا الشيء الغيبى إلى مفهومنا البشرى . . أعطانا مثلا نراه فى حياتنا حتى تستطيع القلوب أن تستوعب . . والعقول أن تعى . . ولذلك حين أراد أن يرحمنا برحمته . . اتخذ الأم وابنها مثلا للمغفرة حتى نعرف أن رحمة الله بلا حدود .

● ● ●

إذن فكلمة رحمن وكلمة رحيم مشتقة من الرحم الذى يعطى الجنين كل ما يحتاج . . ليأخذ منه كل ما يريد بلا مقابل . . فالرحم يعطى للجنين الغذاء . . ويعطيه كل وسائل الراحة . . ولا تأخذ الأم من الجنين شيئا . . فهو يأكل من طعامها ويتغذى من دمها . . ويحصل على كل احتياجاته من جسدها . . وقد يكون على حساب احتياجات الأم نفسها . . فتضعف هى ويقوى هو . . والمهم أن الرحم هو مكان العطاء للطفل بلا مقابل . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا أن قلب الأم مغفرة بلا حدود . . وأن رحم الأم هو المكان الذى ينمو فيه الجنين بعطاء بلا حدود . . علنا بعد ذلك نقترب بأذهاننا من معنى كلمة الرحمن الرحيم . . والله غنى عنا جميعا . . ومادام غير محتاج الينا فهو يعطينا بلا مقابل . . والله غفور رحيم . . رحمته لا تعرف الحقد ولا الضغينة ولا الأنانية . . فسبحانه وتعالى رحمته بلا حدود ولا قيود . . وكلنا فى حياتنا نعيش طامعين فى رحمة الله سبحانه وتعالى نخطىء ونعود إلى حظيرة الله . . ونضعف فيقوينا الإيمان لنتغلب على ضعفنا . . فإذا كنت عاصيا فإن الله سبحانه وتعالى يقول لك لا تستحى أن تهتف باسمى . . فاننى قد فتحت لك أبواب الرحمة ما يسع ذنوبك جميعا . . وعندما تهتف باسمى حين تبدأ العمل . .

فأنت تمنع عنك غرور النفس . . ولذلك إذا لم تقدر على العمل بذاتك . . فإننى

أعينك عليه بتسخير الأشياء لك فتزداد قدرة على قدرة .. وتحصل على ثواب الدنيا والآخرة .

● ● ●

وبعض الناس يثير فى هذه النقطة جدلا حول صفة الرحمة فى الله سبحانه وتعالى فيقول أنه يأتى بها مرة بصيغة القوة والضعف .. والكثرة والقلة .. فإذا قيل رحمن تصبح مبالغة وإذا قيل رحيم تصبح مبالغة .. وإذا قيل راحم تصبح بلا مبالغة .. ونحن نقول أن صفات الله سبحانه وتعالى لا تتأرجح بين القوة والضعف .. فمرة يكون راحما .. ومرة يكون رحمانا .. ومرة يكون رحيما .. وصيغ المبالغة لا تأتى إلا فى الشىء المتغير .

● ● ●



الفصل الرابع

الله لا يتغير.. ولا يتبدّل

الله سبحانه وتعالى لا يتبدل ولا يتغير ولكن الذى يحدث فى التغيير أن متعلقات هذه الصّفة هى التى تكثر وتقل . . أنت تقول إن فلانا أكل . . أى أنه تناول طعاماعاديا كسائر البشر ـ ثم تقول أكول أى أنه يتناول من الطعام أضعاف ما يتناوله البشر . . فإذا كان الإنسان يتناول رغيفا فى الطعام . . فإن هذا الشخص الأكول يتناول ثلاثة أو أربعة أرغفة . . فإذا كان يأكل نفس الأرغفة العادية . . ولكنه يتناول الطعام عشر مرات فى اليوم فتكون المبالغة منا فى تكرار الحدث . ويأكل فى كل وجبة رغيفا مثلا ولكنه يكرر ذلك عشر مرات فى اليوم ، فهو أكول . . إذن فالمبالغة تأتى من تكرار شىء عادى . . ومن خروج الشىء عن المألوف ، ثم يأتى الله سبحانه وتعالى فيقول « **وما ربك بظلام للعبيد** » . . ويقول « **ولا يظلم ربك أحدا** » . . حينما نأتى إلى هذه الآية الكريمة « **وما ربك بظلام للعبيد** » نجد هنا صيغة المبالغة ـ وقد يتبادر إلى بعض الأذهان مثل المستشرقين مثلا ـ أن الله سبحانه وتعالى . . وقد نفى عن نفسه المبالغة فى الظلم فقال « **بظلام** » . . لم ينف عن نفسه صيغة الظلم . . ويضيف الله سبحانه وتعالى « **ولا يظلم ربك أحدا** » ـ فهو فى هذه الآية قد نفى عن نفسه الظلم تماما . ولكنه فى الآية الأولى نفى المبالغة فى الظلم ، نقول له إنك لم تفهم معنى الآيتين الكريمتين ، الآية الأولى « **وما ربك بظلام** » أقال الله سبحانه وتعالى للعبد . . أم للعبيد . . لو أن الله سبحانه وتعالى استخدم كلمة العبد بدلا من استخدامه كلمة العبيد . . لقلنا إن الله قد نفى صفة المبالغة فى الظلم عن نفسه . . ولكنه ترك صفة الظلم.. ولكن قوله سبحانه وتعالى « **للعبيد** » . . معناها أن الحدث هنا متكرر . . فلو أن الله لا يبالغ فى الظلم . . ولكنه يظلم كل فرد من عباده مقدار ذرة ـ لكان بذلك تبارك وتعالى « **ظلاما** » . . لماذا ؟ . . لأنه كما قلنا تكرر الحدث مرات . . ومن هنا تأتى صيغة المبالغة مهما كان الحدث ضعيفا . . لأن المبالغة هنا لا تأتى من الحدث نفسه . . ولكنها تأتى من التكرار .

ومن هنا إذا ظلم الله كل إنسان ذرة . . فإن تكرار الحدث مع هذا العدد الهائل يصبح من صيغ المبالغة . . ولذلك يريد الله سبحانه وتعالى أن ينفى هنا

انه يظلم أحدا من عباده ولو مقدار ذرة . . لذلك فهو يقول « **وماربك بظلام للعبيد** » . . أى أنه لا يظلم إنسانا ولو ذرة واحدة . . ولذلك استخدم الله سبحانه وتعالى هنا صفة المبالغة . . لماذا ؟ لأن متعلقات الصفة مجموع هائل من البشر . . ولكن قول الله سبحانه وتعالى « **ولا يظلم ربك أحدا** » . . هنا جاءت بصيغة الفرد . . فكأنه نفى الظلم بصيغة المبالغة .

الصفة لا تتغير

ولذلك فإن استخدام الله سبحانه وتعالى للحفظ « ظالم » ولفظ « ظلام » . . ليس معناه أن تتغير علوا وضعفا . . لأن الكمال لله سبحانه وتعالى . . ولكن معناه أن الذى يتغير هو متعلقات الصفة . . فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن ينفى وقوع أى ظلم على عبيده الذين هو قادر عليهم جميعا . . فيجب فى هذه الحالة أن تتناسب الصفة مع العدد الذى يقدر عليه الله وهو كل خلقه . . ولذلك يجب أن تنفى بصفة المبالغة . . لأن الله سبحانه وتعالى . . لو أصاب عباده كل مجموع بذرة واحدة من الظلم لكان ظلاما . . والله سبحانه وتعالى ينفى هنا حتى مجرد مظنة الظلم .

فعندما يأتى الله سبحانه وتعالى ويقول راحم ورحيم . . فتلك تتعلق بصفات الرحمة . . فهو فى الدنيا يرحم المؤمن والكافر . . فيسخر ما خلقه للبشر جميعا . . فالشمس حين تعطى أشعتها لا تفرق بين مؤمن وكافر . . بل هى تعطيها للجميع عطاء ربوبية . . والأرض حينما تنفعل وتخرج لك الزرع . . هى لا تفرق بين المؤمن والكافر . . ولذلك فهى تعطيها عطاء متساويا . . فلا تقول هذا مؤمن يقوم بزراعتى فسأعطيه الثمر . . وهذا كافر سأحرمه من ثمره . . أو تقول هذا المؤمن سأعطيه أضعاف هذا الكافر . . ولكنها تنفعل للاثنين معا . . وباب الرحمة والتوبة مفتوح فى الدنيا للعاصى .

إذن فصيغة الرحمة هنا لابد أن تكون بصيغة المبالغة . . لأنها تشمل الخلق

كلهم .. المؤمن منهم والكافر .. العاصى منهم والمطيع .. ولكن إذا أتينا للآخرة مثلا .. نجد أن الله يطرد من رحمته العاصين والكافرين .. ولا تشمل رحمته إلا عباده المؤمنين .. هنا فى هذه الحالة قلت متعلقات صفة الرحمة .. وإن كانت الصفة نفسها لم تتغير ولم تتبدل .. هكذا فى كل صفات الله جل جلاله .. كلما شملت الصفة عددا هائلا جاءت بصيغة المبالغة فإذا كانت متعلقات الصفة عددا محدودا فلا مبالغة .. والصفة لا تتغير ولكن متعلقاتها .

والحق عز وجل طلب منا حين نبدأ فى قراءة القرآن وفى كل عمل .. أن نبدأه « باسم الله الرحمن الرحيم » .. بسم الله الذى سخر لنا الأشياء ، ولولا تسخيرها لنا لما استطعنا أن نسخرها لأنفسنا ، وإذا كان بعض الناس لا يفطن إلى تسخير الله لما فى الكون .. فالله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بذلك دائما حتى لا ننسى .. ولكن لماذا ننسى ؟ لأن رتابة الأشياء تجعلنا نحس أنها حق مكتسب لنا فى الحياة .. فالشمس تشرق كل صباح .. ولكن من منا يفكر وقت شروق الشمس أن الله سخرها لنا من سبل الحياة فى الكون .. الشمس تشرق كل يوم .. ولا نحس أن ذلك إلا من رتابة الكون ونظامه دون أى تفكير .

إن الإنسان لو فكر فى أن هذه الشمس التى تشرق كل صباح هى نعمة من نعم الله التى سخرها لعباده .. وأنه لا أحد يستطيع أن يسخر الشمس للخلق إلا الله سبحانه وتعالى .. ما وجد فى الدنيا كافر .. لأن الشمس تشرق كل يوم باذن ربها .. لتذكره بنعمة الله عليه وتسخيرها له .. وكذلك القمر .. وكذلك النجوم .. وكذلك الأرض .. وكل ما تعطى من عطاء للبشر .. الأرض التى ذللها الله سبحانه وتعالى للإنسان وكذلك الأنعام التى تدر لنا الألبان .. ونستخدمها فى أشياء كثيرة .. ولكن الإنسان ينسى هذا .. فإذا ركب الطفل الصغير حصانا أو جملا فاننا نقول إن الطفل يقود الجمل .. وذلك ما يقال فى الدنيا جوازا .. ولكن الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى قد ذلل الحصان أو الجمل للإنسان .. فاستطاع هذا الطفل أن يقوده .. ذلك أن هذا الحصان أو هذا

الجمل . . هو أقوى من الطفل عشرات المرات . . ويستطيع أن يتغلب عليه أو يفتك به . . ولكنك تجده مع ذلك طائعا ذليلا للإنسان . . هذه الطاعة ليست للبشر . . وإنما لأمر الله فى التسخير للبشر . . فهذا الجمل لا يخضع للطفل الصغير خوفا منه . . ولا عن عدم قدرة . . ولكنه يخضع له لأن الله أمره أن يخضع فخضع .

ولذلك فالله سبحانه وتعالى أراد أن يلفتنا إلى هذه النعمة فى الكون . . فجاء ببعض الحيوانات التى خلقها . . ولم يجعلها مذللة للإنسان بل تركها غير مسخرة له . . جاء الله فى الكون بعدد هائل من هذه الحيوانات أخضعها للبشر وذللها لهم . . وبعدد قليل منها لم يذلله مثل الثعبان والعقرب الحيوانات المفترسة التى يخشاها الناس ويهابها لأنها تلحق الضرر بهم . . ورغم مرور مئات الألوف من السنين . . وربما ملايين السنين فإن هذه الحيوانات ظلت لا تخضع لبشر . . ولا يستطيع إنسان أن يستأنسها ويستخدمها . . فلا نجد إنسانا مثلا يستطيع أن يستخدم الأسد فى جر المحراث . . أو يستطيع أن يستخدم النمر فى دوران الساقية رغم أنها أقوى من البقر . . لماذا ؟ حتى إذا جاء إنسان وحاول وقال أنا سخرت هذا واستخدمته لنفسى وذللته . . فاننا نقول له إذا كنت قد فعلت ذلك . . فذلل لنا العقرب وابعد عنا سمها . . وذلل لنا الثعبان أو الأسد أو النمر إلى غير ذلك من الحيوانات المفترسة غير المذللة للبشر . . حينئذ سيعجز تماما إذا أنت لم تستطع أن تذلل العقرب على ضآلة شأنه . . والثعبان على صغر حجمه فكيف تستطيع أن تذلل الجمل أو الحصان على قوتها وكبر حجمها وقدرتها على الفتك بك . . إنك لم تذللها . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى سخرها لك .

نقول . . لا

ولكن بعض الناس يثيرون هنا نقطة هامة . . فالحيوانات المفترسة يأتون بها إلى السيرك . . ويقوم الإنسان بواسطة الكرباج أو التخويف بتدريبها بحيث تطيعه . . أفلا يعتبر هذا تذليلا . . نقول لهؤلاء . . لا . . لا يعتبر تذليلا . .

لأن هذه حالة فردية تتوقف على مهارة المدرب وموهبته وقدرته على اخضاعه الأسد الذى أمامه فقط . . وفى كثير من الأحيان يقوم الأسد بافتراس مدربه . . ولكن هل يستطيع المدرب أن ينقل هذا إلى جنس الأسد عامة . . وهل استئناس هذا الأسد إن كان يصح أن يقال ان هذا استئناس . . هل ينتقل هذا الاستئناس إلى ذرية الأسد بحيث تولد الذرية خاضعة للبشر . . الجواب طبعا لا . . إذن لا هو استئناس للجنس على اطلاقه . . ولا هو استئناس ينتقل إلى ذريته بحيث تولد هذه الذرية خاضعة . . ولكنه حالة فردية لا يمكن القياس عليها . . وكما قلت فى أحيان كثيرة . . قد يفترس الأسد مدربه . . وبهذا ينهدم القول بالاستئناس . . إذن كل ما يحدث بالنسبة لاستئناس حيوانات مفترسة . . هو حالات فردية تتوقف على مهارة المدرب . . فاذا فقد المدرب مهارته أو غفل عنها لحظة افترسه الأسد أو النمر . . ولكن الله سبحانه وتعالى قد أطلق لنا الحيوانات على اطلاقها فكل بقرة تولد ذلولا . . وكل جمل يأتى إلى هذه الدنيا . . هو خاضع للبشر مذلل له . . وكل حصان يستطيع الطفل الصغير إذا دربته أن يقوده . . وهذه ليست حالات فردية ولكنها عامة . . تخضع لعموم التكليف وتنتقل وراثيا من الأب والأم إلى الجنس كله ، وهذا هو التذليل الحقيقى والتسخير الذى يحمل آية من آيات الله للبشر . .

وحين نقول باسم الله نستعين بالذى سخر لنا كل شيء فى هذه الدنيا وأخضعه لنا . . ولكن الإنسان لا ينتبه للخطر ولا يحس بالنعمة إلا ساعة تخرج حياته عن المألوف . . فأنت مادمت تتمتع بالصحة لا تشعر انك تتمتع بشيء . . انك تأخذ هذه النعمة على أساس المألوف . . فهناك ألفة بينك وبين الصحة والعافية تجعلك لا تحس بقيمتها . . فإذا اعتلت صحتك أو مرضت . . فى هذه اللحظة تعرف معنى النعمة . . وتتنبه إلى ما أعطاه الله لك . . إنك لا تحس بنعمة البصر إلا إذا حدث شيء أخرج هذا البصر عن مألوف عمله . . فأصبحت لا ترى كالمعتاد . . أنت لا تحس بقلبك إلا إذا مرض واختل . . وبأذنيك إلا إذا أصاب سمعك شيء . . وبيديك إلا إذا وجدت صعوبة فى أن تستخدمها . . وبقدميك

إلا إذا فقدت القدرة على المشى . . حينئذ فقط تحس . . والإنسان يكون فى حياته أقرب إلى الله حين يمرض . . ذلك أنه فى تلك اللحظة التى غادرت فيها العافية جسده . . أحس بنعمة الله . . وكلمة (آه) التى يقولها الإنسان حين يتألم . . كلمة فطرية يفزع بها الإنسان إلى خالقه لأنه هو الذى وهب . . وهو الذى يستطيع أن يشفى . . فإذا ما استرد الإنسان صحته استرد معها انعدام الاحساس بالنعمة . . فبقاء النعمة يجعلنا ننساها . . ولكن خروجها عن المألوف يجعلنا نحس بها . . ولذلك لولا تلك الأحداث والأزمات التى تمر بنا . . الكثير منا فى حياته وهو لا يحس بنعم الله عليه . . والله سبحانه وتعالى كما وضع فيما سخره لنا من مخلوقات . . وضع فيها الدليل على نعمته مثلما تناولناه حول الحيوانات التى أخضعها الله للإنسان والتى لم يخضعها . . كذلك وضع فى البشر أشياء تذكره بالنعمة . . ولقد وضع الله هذه الأشياء بأعداد قليلة . . وأعطى أصحابها ما يعوضهم عما فقدوه . . فمثلا نأتى إلى قرية تعدادها عشرة آلاف شخص . . فنجد عشرة أو أكثر من ذلك قليلا من المكفوفين . . وبعض الناس قد فقد عينيه أو احدى قدميه أو ما شابه هذا . . شواذ فى الوجود . . وقلة القليل فى الخلق . . ولكن الله سبحانه وتعالى قد وضعها ليذكرنا بنعمته علينا . . حتى لا نقول إن هذا الوجود وجود آلى . . أو ميكانيكى . . وانى حين خلقت سليما معافى قد حققت ذلك بذاتى . . فيوجد الله فى القربة رجلا فاقد البصر ليقول لى أنت لم تحقق لذاتك نعمة البصر . . وإنما أنا الذى حققتها لك . . وإذا نسيت فإن هذا يذكرك . . وإذا اعتقدت انك أنت الذى أوجدت القدمين السليمتين . . والساعدين القويين فالله يذكرك بأن هذه نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى عليك . . وفى نفس الوقت فإن الإنسان الذى فقد جزءا من نعمة الله عليه بالسمع أو بالبصر أو بالحركة . . يوجد له الله من يقوده فى حركته فى الحياة . . ومن يعوضه عن هذا العجز . . فالضرير مثلا أو فاقد البصر . . يعطيه الله ذاكرة لا تخطىء . . ويعطيه فوق ذلك عطفا من البشر لا يحصل عليه إنسان سليم معافى . . وييسر له من الأمور ما تعلمه أنت وما لا تعلمه . . والمهم فى هذا كله أن الله يجعل حياة مثل هذا الشخص ميسرة . . بالقدر الذى يعوضه عما فقد .

وهكذا يأتى فقدان اى إنسان لنعمة من النعم تذكره بباقى نعم الله سبحانه وتعالى . . تلك النعم التى يأخذها كل إنسان على أنها حق مكتسب ولا يتنبه إليها . . ولذلك تأتى لفتة من الله يرى فيها الإنسان شخصا آخر فاقدا لهذه النعمة فيتذكر فضل الله عليه .

والأشياء الموجودة فى الكون والتى تخرج عن مألوف الخلق هى وسائل إيضاح لنعم الله سبحانه وتعالى يهز الإنسان من داخله . . ولقد رأينا ونرى كل يوم نوابغ فى كل علم . . من أولئك الذين حرمهم الله نعمة من النعم . . فلكل واحد من هؤلاء نبوغ لا يتوافر لغيره . . وناحية يتميز بها فى عبقرية من نوع معين . . فأكثر الناس قدرة على حفظ ما يسمعون هم الذين فقدوا أبصارهم . . وعدد من المصابين بعاهات مثل شلل الأطفال وصلوا إلى مناصب رؤساء دول ، وشيخ الاقتصاد الذى أنقذ ألمانيا بعد الحرب . . كانت رجلاه قصيرتين بشكل يلفت النظر .

وإذا تأملنا فى أشياء كثيرة فى الكون . . نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أخضع الأقوى للأضعف بقدرته ـ فمثل الطفل والجمل والحصان يعطينا صورة لذلك ـ ومثل العقول الالكترونية التى تفوق قدرة عقول الانسانية فى عدد من العمليات الحسابية .

نقول أن الله سبحانه وتعالى قد أخضع هذا الكشف للعقل البشرى . . ليدلنا على أن الكشف العلمى هو من الله سبحانه وتعالى . . فلذلك يسر لعقل البشر أن يخترع آلة تفوقه فى الدقة . . إذن فعدل السماء مطلق فيما أعطاه الله للانسان . . ولكل واحد منا نقطة يتميز بها عن غيره من البشر ، ونعم الكون سواء كانت من خلق الله . . أو مما كشفه الله من علم للعقل البشرى كلها تحمل الدليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق . . وهو الذى أعطى . . ولو كان العطاء عطاء بشريا لاستطاع البشر أنفسهم أن يخضعوا تلك النسبة القليلة من الشواذ للاطار العام للخلق . . ولذلك إذا كان للكون نظامه العام الذى

يألفه الإنسان حتى يعتقد زيفا أنه ليس وراء هذا الوجود خالق أو مدبر . . يأتى الله سبحانه وتعالى ليخرج أشياء بسيطة عن النظام العام . . لتذكر الخلق بالخالق .

ومن رحمة الله أن يحدث هذا بنسبة تافهة لا تذكر . . بهدف التذكير بالقدرة الالهية . . وإن هذا الكون ليس موجودا تلقائيا . . فالكون لا يخضع لأحد أبدا إلا لخالقه . . فعندما تبدأ العمل باسم الله . . فانك تجعل قدرات الله معك فلا تخشى شيئا . . ولا تخاف أحدا . . وحين نستعين بالله من الشيطان الرجيم . . نستعين بالخالق من خلقه . . وهنا لا يقوى الشيطان ولا يجرؤ على أن تكون له مواجهة . . فمادمت فى معية الله . . فلا يجرؤ ابليس أن يذهب إليك .

حكمة الغار

ولعل فى قصة الغار الذى التجأ إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة . . التجأ هو وأبو بكر رضى الله عنه إلى غار ثور واختبأ داخله . . وجاء الكفار ووقفوا عند مدخل الغار . . وملأ الخوف قلب أبى بكر من أن يقع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ايدى الكفار . . وقال لو نظر أحدهم تحت قدميه لشاهدنا . . وكان أبو بكر بذلك يقرر واقعا . . فالكفار يقفون عند مدخل الغار . . والنبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فى داخله . . ونظرة واحدة من الكفار داخل الغار تفضح الأمر كله . . فماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . رفع الأمر إلى الله . . وقال لأبى بكر (ما ظنك باثنين الله ثالثهما) . . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة بقول الله سبحانه وتعالى **« لا تحزن إن الله معنا »** .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم رفع الأمر إلى الله سبحانه وتعالى . . وهو وأبو بكر فى معية الله . . وأصبح هنا قول أبو بكر لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . . هو قول يعتمد على الذاتية البشرية . . ولكن قول الرسول صلى الله عليه وسلم **(لا تحزن إن الله معنا)** . . معناه أنه بقدرة البشر . . إنهم لو نظروا تحت أقدامهم لرأونا . . ولكننا ما دمنا قد رفعنا الأمر إلى قدرة الله سبحانه وتعالى

ستزيغ أبصارهم فلن يرونا . . وحتى لو نظروا تحت أقدامهم فلن يرونا . . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحفظنا . . فنحن لا نحفظ أنفسنا . . وهكذا جاءت هذه الآية لتبين لنا . . كيف أن الله سبحانه وتعالى إذا كان معنا كانت لنا الغلبة . . وإننا يجب أن نستعين بالله فى جميع الأمور . . وتنطبق نفس الحكمة على تنزل القرآن وهو ما سبق أن ذكرناه بالتفصيل . . فمحمد صلى الله عليه وسلم حين قال له « **إقرأ** » . . كان يقول له أنا لا أريدك أن تقرأ بالأسباب ولا بما تعلمته . . ولكن « **اقرأ باسم ربك** » . . وهنا نقل القدرة إلى الله سبحانه وتعالى الذى ليس لقدرته حدود ولا قيود . . فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لرسول الله أنا لا أريدك أن تقرأ بما تعلمته من البشر . . ولكنك ستقرأ بما ستتعلمه من خالق البشر . . إذا أراد أن يقول لشىء كن فيكون .

والله تبارك وتعالى يخبرنا فى سورة الكهف . . ان الاعتراف بفضل الله . . هو للنعيم . . فيقول الحق سبحانه وتعالى « **ودخل جنته وهو ظالم لنفسه** » . . والقول هنا أنه حينما دخل جنته أو حديقته ووجدها مثمرة يملؤها الثمر . . مخضرة جميلة . . فى هذه اللحظة اغتر بقوته أو بعلمه . . وساعة حدث هذا الغرور ظلم الإنسان نفسه . . لماذا ؟ . . لأنه نسب إليها الفعل دون أن يذكر قوة الله . . وحين يحدث ذلك يتخلى الله عن هذا الإنسان . . ويتركه لذاته . . ليضيع فى الدنيا . . ولذلك فهو ظلم نفسه لأنه جردها من عون الله لها . . ورمى كل الثقل عليها .

وتمضى السورة الكريمة إلى قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾

(سورة الكهف)

وهنا يكون قد دخل نفسه مدخل الشيطان الذى دخله لآدم . . إستذله الشيطان بأن قال له . . « **قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك**

لا يبلى » . . وهذا الإنسان وسوست له نفسه بأن هذه الجنة لن تبيد . . أى لن تنتهى وتذهب . . أى أنها ملك لا يبلى . . وأضاف «وما أظن الساعة قائمة» وهكذا أعطى لنفسه الخلد من أن الساعة لن تأتى . . وأنه سيظل خالدا هو وحديقته هذه . . بماذا رد عليه الإنسان المؤمن .

رد قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد غاب عليه أنه فى هذه اللحظة التى يتمتع فيها بمثل هذه النعم نسى الله . . فنسب الشىء إلى نفسه . . وقال له لولا أن قلت وأنت تدخل هذه الجنة : ما شاء الله وأنه لا قوة إلا بالله . . فلا تنسب القوة إلى نفسك . . حينئذ ماذا حدث . . « أحيط بثمره » . . فانتهت الحديقة وأصبحت خرابا .

﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فى اللحظة التى نسى فيها الله ـ تخلى الله سبحانه وتعالى عنه . . وتركه لقدراته . . فهلكت الحديقة وذهب عنها الماء وانتهت الخضرة وضاع الثمر . . وأصبحت خاوية وتركه الله ليصلحها بقدراته هو ومن معه دون عون من الله سبحانه وتعالى . . ولكنه لم يجد من نصره من دون الله . . ولو أنه رفع الأمر إلى قدرة الله لبارك الله له فى رزقه وفى زرعه .

قصص القرآن

والقصص فى القرآن الكريم لا يتناول أشخاصا بذواتهم أى أن هذه القصة وكل قصص القرآن الكريم . . إنما هى عبرة عامة وموعظة تتكرر فى كل

عصر . . ما عدا قصة مريم عليها السلام . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى لم يذكر أبطال هذه القصص بأسمائهم الكاملة لتعرف أشخاصهم . . بل اكتفى باسم واحد عام . . ففرعون مثلا هو كل شخص يريد أن يجعل من نفسه إلها يعبد فى الأرض . . وصاحب الجنة فى سورة الكهف . . هو كل من ينسى الله وينسب الفضل إلى نفسه . . ولذلك فإننا نعيب على بعض الناس فى البحث عن من هو فرعون موسى . . أو من هو ذو القرنين . . ونحن نقول إن الهدف ليس الشخص ولكنه العبرة والعظة . . ولذلك عندما جاء الله سبحانه وتعالى إلى سورة مريم عليها السلام . . قال مريم ابنة عمران . . ولم يقل مريم فقط . . لماذا ؟ لأنه فى هذه الحالة المقصود مريم ابنة عمران بالذات . . وان هذه القصة لن تحدث لغيرها . . كذلك المقصود بقصة عيسى عليه السلام . . هو عيسى ابن مريم بالذات . . وليس أى إنسان آخر . . فمن اختصه القرآن بقصة تتعلق بذاته هو عيسى ابن مريم . . ومريم ابنة عمران . . أما باقى قصص القرآن فالذى يجب أن نستخلصه منه هو العبرة والعظة دون أن نتعب أنفسنا فى البحث عن علم لا ينفع . . أو جهل لا يضر . . فما الذى يتغير فى قصة موسى عليه السلام إذا عرفنا أن فرعون موسى هو رمسيس الأول أو رمسيس الثانى أو رمسيس الثالث . . ليس هذا هو المهم .

ولكن المهم أن تعرف العظة . . مما يتعرض له أى إنسان ينصب نفسه إلها من دون الله فى الأرض . . وما يتعرض له الذين يتبعونه بغير علم . . ولذلك فإننا يجب أن نستخلص العبرة من قصص القرآن الكريم . . ولا نضيع الوقت فى معرفة أصحاب هذه القصص فى التاريخ .

الله يتكلم

وحين يقرأ القرآن الكريم من أى قارىء . . يجب أن يتصور المؤمن أنه يسمع الله يتكلم . . ويلغى المتكلم الوسيط . . ولذلك حين نقول باسم الله أو نبدأ أعمالنا باسم الله الرحمن الرحيم . . لابد أن ننسب الكلام إلى المتكلم . . فأنت

حين يأتى إليك إنسان فى أمر من الأمور ويريد منك تنفيذه . . فسألته باسم من تتكلم . . فتجد أنه إذا كان عاديا قال باسم وكيل النيابة أو باسم وزير الداخلية مثلا . . ثم إذا ارتقى فى المقام تكلم باسم الشعب . . أو باسم الدستور . . وأنت تطيع المتكلم عندما ينسب الكلام إلى المصدر الذى يعطيه القوة . . فإذا قلت باسم الله نسبت الفضل له . . ومن الذى يعطيك فى هذه الحالة القوة . . إنه الله الذى ليس كمثله شىء . . والذى يقول للشىء كن فيكون .

عندما تبدأ قراءة القرآن . . فإنك تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . . ثم تبدأ القراءة باسم الله الرحمن الرحيم . . وحين تبدأ أى شىء باسم الله . . فإنك تنقل الأمر من قدرتك إلى قدرة الله . . فيكون الله سبحانه وتعالى يسخر ما لا يستطيع تسخيره . . وييسر لك الأمر . . ويبارك لك فيما تفعل . . فأنت إذا كنت فلاحا وذهبت لتحرث الأرض لتعطى لك الزرع . . فلابد أن تتذكر أولا أنك لم تخلق الأرض . . ولا خلقت عنصرا من عناصرها . . وأنت لم تخلق البذرة التى وضعتها فى الأرض . . فهذه من خلق الله . . جاء الإنسان إلى الدنيا فوجد الله سبحانه وتعالى قد أعدها له . . وأنت لم تخلق المياه التى نزلت من السماء . . ولم تنزلها فى هذه البقعة بالذات . . والدليل على ذلك أن العالم ملىء بالصحارى . . بينما مناطق أخرى تصيبها الفيضانات من كثرة الأمطار . . ولو كنت الذى فعلت هذا لاستطعت أن تروى الصحراء . . وأن توجد البحار والأنهار . . ولكنك لم تستطع . . وكل ما يقال مخالفا لذلك . . هو ظن . . وليس علما ولا حقيقة . . فلا أنت خلقت البذرة . . ولا أنت أنزلت المياه . . كل ما فى الأمر . . أنك أعملت فكرك المخلوق من الله فى المادة المخلوقة من الله . . بالطاقة المخلوقة من الله .

علمك محدود

إذن فعلمك هنا محدود . . محدود . . ولذلك حين تقبل على الزراعة . . إذا لم تبدأ باسم الله . . لنسبت الفضل إلى غيره . . وبالله عليك لو أنك لم تبدأ

باسم الله . . باسم من تبدأ . . باسمك أنت ، وأنت لا قدرة لك على خلق الأرض . . ولا انزال المطر . . ولا إيجاد البذرة . . لا قدرة لك على أن ترغم الأرض أن تنبت . . ولا أن تخلق أرضا غير تلك التى خلقها الله لتزرعها . . ولا أنت تستطيع أن تخلق بذرة من عدم . . ولا أن تنزل الماء . . فما هى قدرتك التى تبدأ بها . . وأى قدرة تلك التى تدفعك أن تستغنى عن الله سبحانه وتعالى لتنسب الفضل لنفسك . . لا توجد قدرة انسانية تستطيع أن ترغم عملا من الأعمال فى الدنيا على أن ينفعل بها . . هناك أشياء سخرها الله للإنسان . . وما سخره الله لك يخدمك بدون جهد منك . . وأحيانا بجهد ضئيل حتى تستمر الحياة والعمل .

وفى الدنيا أشياء كثيرة لا تدخل فى قدرتى وقدرتك . . ولا فى طاعتى وطاعتك . . الشمس لا يستطيع أحد أن يأمرها أن تطلع أو تغيب حسبما يريد . . والقمر لا ينفعل بأوامر أهل الأرض أن يظهر أو لا يظهر . . والسحاب يمشى حيث يشاء الله لينزل المطر حيث يريد . . والهواء موجود فى الأرض سواء قلت له استمر أو طلبت منه أن يختفى ـ هذه الأشياء كلها سخرها الله سبحانه وتعالى لك . . فأنت حين تبدأ باسم الله . . باسم الخالق الذى سخر لك كل هذا . . وما كنت تقدر أنت بقدراتك على أن تسخرها . . أنت فى هذه الحالة تبدأ باسم الذى جعل هذه الأشياء تنفعل لك . . وأحيانا تنزل إلى المنفعل بك فلا تجد قدرة لك عليه . . الأرض تنفعل لك لأن الله قد سخرها . . ولكن فى بعض الأحيان ورغم التكنولوجيا الحديثة لا تنفعل لك . . دول كبرى متقدمة تنظر إلى علمها وإلى تخلفنا فى العلم بحسد شديد . . وتقول أنها تقدمت وفعلت كذا وكذا . . وكذا . . ثم بعد ذلك نفاجأ بنقص شديد فى أحد محاصيلها الزراعية . . وهذا يحدث ونسمع عنه بين حين وآخر . . وعندئذ نتساءل . .

برغم العلم والتقدم لم تستطع هذه الدول أن تجعل الأرض تنفعل لها بنسبة مائة فى المائة . . لماذا ؟

الأسباب .. والقدرة

وهذه النقطة تحتاج إلى شيء من الايضاح .. فالله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون .. وجعل من قوانين الحياة أنها تتم بالأسباب .. من يزرع الأرض ويهتم بها ويبحث عن آيات الله فيها .. تنفعل له .. سواء كان مؤمنا أو كافرا .. فالله سبحانه وتعالى خلق ما فى الأرض جميعا .. وخلق لها الأسباب التى تتفاعل بها .. والقوانين التى تحكمها .. والله سبحانه وتعالى حين قال كلمة « كن » .. تم الخلق فى نفس اللحظة .. ولكن لأسباب تفاعلت فى السموات والأرض فى ستة أيام .. وهى ستة أيام كأيام البشر .. لأن القرآن يخاطب الإنسان .. ومن هنا فإن كل ما يتحدث عنه موجه إلى العقل البشرى .. سواء كان ذلك حاضرا أو مستقبلا .. مما يخفى على عقولنا الآن .. ولكن هذه القوانين والأسباب لا يمكن أن تكون قيدا على قدرة الله سبحانه وتعالى .. ذلك أن الله لو قضى بالأسباب وحدها فى الأرض .. لعبد الناس الأسباب وحدها .. ونسوا المسبب أو الخالق .. ولذلك بقيت طلاقة القدرة فى الكون .. لتلفت الناس إلى أن الذى خلق الأسباب لا تقيده هذه الأسباب فى قدرته .. ولكنه يفعل ما يشاء .. ووقتما يشاء .. ولكن طلاقة القدرة لا تحدث إلا بين حين وآخر .. لأنها ليست قانون الأرض .. ولا هى وسيلة الحياة فيها .

إذا حدثت طلاقة القدرة كل يوم انتفت الأسباب .. ولم يعد لقانون الدنيا وجود .. ولكنها تأتى لفتة .. وهى فى مجيئها مكلفة من الله سبحانه وتعالى .. تكون مؤثرة حتى يحسها الإنسان ولا تمر مرورا عابرا .. لذلك نأتى ونجد أن محصول الحبوب فى دولة كبرى تأخذ بالتكنولوجيا الحديثة قد انخفض أو اصابته كارثة .. ومعنى هذا أن الأرض قد رفضت أن تنفعل بالأسباب ونتساءل نحن .. إن الأرض هى الأرض .. والطرق العلمية هى الطرق العلمية .. والماء هو الماء .. فما الذى تغير .. ؟

أقول أنها لفتة من الله سبحانه وتعالى حتى لا نعبد الأسباب ونترك الله ..

ولكن حتى هذه اللفتات .. يحاول الإنسان بقدر طاقته أن يجعل لها قوانين سببية .. مع أنها جاءت لتلفت الناس إلى القدرة الالهية التى هى فوق الأسباب .

يرزق من يشاء

وهذا الحديث قد لا يعجب أناسا كثيرين .. من أولئك الذين تعلقوا بالحياة المادية .. ذلك أنهم ينسبون إلى الاسلام .. أنه دين يحض على التخلف بسبب الإيمان بطلاقة القدرة .. ويرددون قول الله تبارك وتعالى « ... **ويرزق من يشاء بغير حساب** » .. على أساس أنه مدعاة ودعوة صريحة لعدم العمل .. فإذا كان الله يرزق من يشاء وبغير حساب .. فلماذا العمل والتعب .. ولماذا السعى وراء الرزق .. مع ما يورثه للنفس من مشقة .. وقبل أن أجيب على هذا السؤال لابد من ايضاحين :

الايضاح الأول أنه إذا كانت طلاقة القدرة تعطى .. فإنها كما أوضحت لا يمكن أن تصبح قانون الكون .. لأن طلاقة القدرة هى قانون الآخرة .. وليست قانون الدنيا .. ففى الآخرة يأتيك بمجرد أن يجول فى خاطرك أو تفكر فيه .. لا عمل فى الآخر ولا سعى .. وإنما عطاء من الله بلا حدود ولا قيود .. أما فى الدنيا فهناك قانون الأسباب .. ومعه طلاقة القدرة .

والايضاح الثانى أن لكل إنسان رزقا قد لا يعلمه .. وإذا كان الكافر يحدد الرزق بالمال وحده .. فإن المؤمن يحدد الرزق بعطاءات كثيرة من الله سبحانه وتعالى .. فحب الناس لك رزق .. والبركة فى بيتك رزق .. والبركة فى صحتك وأولادك رزق .. إلى آخر ما تنطبق عليه كلمة الرزق .. نعود مرة أخرى إلى نهاية الآية الكريمة « **يرزق من يشاء بغير حساب** » .. لنطرح قضية هامة معاصرة تفيق هؤلاء الناس إلى صدق قول الله .

الذين يطعنون فى هذا الدين يعبدون الأسباب ويتخذونها إلها . . فكل رزق عندهم مساو للعمل الذى يتم من أجله . . فإذا عملت ليل نهار زاد رزقك . . وإذا عملت بضع ساعات قل رزقك . . وهكذا تلك هى القاعدة التى يتبعونها . . كل رزق مساو للعمل .

المسبب . . والأسباب

نقول لهؤلاء الناس إن هذا قد يكون صحيحا لقاعدة عامة . . ولكن الله يرزق من يشاء بغير حساب . . ولنلاحظ فى نهاية الآية الكريمة « من يشاء » . . ولم يقل سبحانه وتعالى أرزق كل الناس بغير حساب . . ولكن كل رزق معلوم على قدر ما أتاحه الله له من عمل وجهد . . وتبقى المشيئة أو طلاقة القدرة تعطى بغير حساب وبغير أسباب . . وإذا نظرنا إلى دول البترول مثلا . . تلك التى تملك القوة الحقيقية فى المال أو فى الرزق فى العالم كله . . إذا نظرنا إليهم نجد أنهم أغنى الناس فى العالم كله رزقا ومالا . . بل هم فاقوا فى الرزق . . تلك الأمم التى فاقتهم فى العمل وفى العلم . . فأصبحت تتجه إليهم ليدعموها فى الرزق كأمريكا وأوربا الغربية وهم أكثر عملا وعلما . . تتجه إلى دول البترول لتقترض منها الملايين لتدعم دول . . وتحاول أن تجذب أموال دول البترول إلى بلادها . . بل أن دول البترول . . تستطيع أن تفلس أكبر دول العالم كأمريكا وألمانيا الغربية واليابان . . إذا هى سحبت دعمها الاقتصادى لها . . وأوقفت تعاملها معها . . فالذى يملك القوة الاقتصادية فى العالم هو دول البترول التى لا تتحكم فى رزقها فقط . . ولكن فى اقتصاد العالم كله . . بشهادة غير المؤمنين والماديين فى هذا العالم .

وإذا قلنا أن دول البترول قد وصلت إلى المركز التى يتحكم فى اقتصاد العالم أجمع ، فلابد أنها قدمت حسب النظرية المادية السببية من العلم والعمل . . ما قدمته دول العالم أجمع . . وهذا غير صحيح . . بل إن بعض هذه الدول

تعمل على استخراج البترول منها . . شركات غربية من الدول التى تخضع اقتصاديا لدول البترول . . والعمل الذى تم . . تم بواسطة خبراء وآلات ومعدات تكنولوجية استوردت من دول أخرى . . فكيف يحدث هذا إذا لم يكن الله سبحانه وتعالى « يرزق من يشاء بغير حساب » . . ولقد شاءت قدرة الله أن يتم ذلك فى أمة اسلامية ، ويكون برهانا صادقا على كلام الله .

ولو أن القاعدة على إطلاقها . . أن الأسباب هى التى توجد الرزق لما كان ذلك يمكن أن يحدث . . ولما كانت دول البترول تستطيع أن تكون أكبر قوة اقتصادية فى العالم . . وفى زمن قياسى لا يستطيع العلم والعمل خلاله أن يعطيا بهذه الوفرة وبهذا السخاء . . ذلك لكى تتطور دولة أو عدة دول لتصبح أغنى دول العالم . . فإن ذلك يتطلب بجانب العلم والعمل فترة زمنية طويلة . . ولكن هنا لا الزمن ولا العلم ولا العمل يتناسب مع الرزق . . إذن من الذى أوجد هذا الرزق ؟ . . ومن الذى أعطاه ؟ . . الله سبحانه وتعالى مصداقا للآية الكريمة « . . . يرزق من يشاء بغير حساب » . . ويدعى أنها لا تتمشى مع تطورات العصر ومقاييس العلم والزمن . . نقول له قبل أن تتسرع فى اتهامك . . فقد أتينا لك بمثل من العصر الذى تعيش فيه . . ولم نأت لك بمثل من التاريخ . . حتى لا نقول حكاية مكذوبة أو أسطورة من الأساطير .

ولم نأت لك بنبوءة . . حتى لا تقول غيب لن يحدث . . ونحن نقول لك قبل أن تتسرع فى اتهامك . . تأمل الكون . . تجد فى كل مكان لله رزقا بغير حساب . . هذا الرزق يلقى بالأسباب بعيدا . . لتأتى طلاقة القدرة وتعلن أن الله يفعل ما يشاء . . عندما يشاء . . وكيفما يشاء . . وأنه إذا كانت الأسباب موجودة . . فإن طلاقة القدرة موجودة منذ خلق الله الأرض .

الاستعانة بالقدرة

إذن فبداية العمل باسم الله . . هى استعانة بقدرة الله سبحانه وتعالى فى

الكون . . ورد الفعل إلى الفاعل الذى يحدث أن الأسباب المادية تعطينا ظاهر الحياة الدنيا وتنظيم سيرها العادى . . ولكن نسبة العمل إلى الأسباب وحدها تبعدنا عن الله سبحانه وتعالى . . ولقد مكن الله بعض خلقه من الأسباب فى الأرض . . ليسير فى الكون . . وتمضى الحياة . . فهذا رئيس الدولة . . وهذا ميسر له أسباب النفوذ والسلطان . . وهذا ميسر له أسباب المال إلى آخر ما نراه فى الدنيا . . وجعل الله العطاء ظاهرا فقط من هذه الأسباب ليسير الكون . . ثم ماذا حدث ؟ . . كانت هذه الأسباب أو حاول بعض الناس الماديين أن يتخذوا له ما يطلب . . وهذا يملك الجاه والسلطان . . وهو ظاهرا يستطيع أن يعطينى ما أريد إذا فعلت له ما يطلب . . وهذا ظاهر الحياة الدنيا .

هب أن هؤلاء الناس لا يخشون الله . . وأنهم قد طلبوا منى أن أفعل ما يغضب الله من أجل مال . . أو جاه أو سلطان . . لو كنت أعبد الأسباب وحدها لنفذت لهم ما يريدون لأصل إلى ما أريد . . فلو قالوا اقتل . . لقتلت . . ولو قالوا أظلم . . لظلمت . . ولو قالوا إفعل كذا وكذا مما يغضب الله . . لفعلت . . إحساسا منى فى أن عطاء الأسباب فى يد هؤلاء وحدهم . . وأن مخالفتهم ستؤدى بى إلى الحرمان من مقومات الحياة . . وأن طاعتهم ستعطينى الحياة الرغدة التى أتمناها . وهكذا وبغير نظر إلى ما قال الله . . افعل . . ولا تفعل . . انطلق لأحقق هوى وشهوات البشر . . ولو كانت تغضب الله . . وهكذا يصبح الهوى الشخصى والغرض البشرى هما أساس الحياة فيفسد الكون كله . . ويصبح الحكم هو شهوة الحاكم . . وليس دين الله .

هذه هى خطورة الأخذ بالأسباب وحدها . . وهى خطورة تعرض الكون كله للاختلال وتضييع موازين العدل . . وتكثر من البغى والفساد فى الأرض . . وما من أمة عبدت الأسباب إلا انتشر فيهاالظلم . . وعم فيها الارهاب . . وضاع فيها الحق . . واستعبد الإنسان .

نســـوا الله

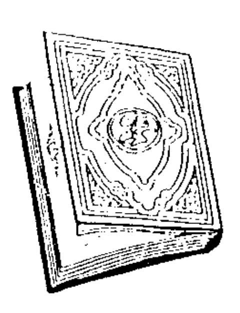
إن إطلاق الأسباب وحدها فى الكون يؤدى إلى عبادة الفرد . . وذلك يؤدى إلى ظلم عظيم . . ولذلك كان لابد من طلاقة القدرة لتصحح المسيرة وتفيق الناس . . وتجعلهم يعلمون أن الله هو الذى أعطى الأسباب ويستطيع كما أعطاها أن يأخذها . . وأن العبادة لله وحده . . فمن ترك المسبب وعبد الأسباب . . فقد ضل ونسى الله . . ولذلك فنحن نتعجب من ضعيف لا حول له ولا قوة يمكنه الله من قوى . . ومن كان يملك الجاه والسلطان ثم أصبح طريدا يبحث عن إنسان فلا يجد حتى من يصافحه . . ومن ينتقل من الحكم إلى السجن وبالعكس . . إن ذلك يحدث أمامنا ليذكرنا بقدرة الله سبحانه وتعالى وقوة المشيئة . . وأن الله هو الذى يعطى الملك والجاه والسلطان . . فإذا عبد الناس هذه الأسباب وانطلقوا يسجدون لها . . أزالها الله . . لماذا ؟ حتى يفيق الناس ويعلموا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يعطى الأسباب . . وأن هذه الأسباب ليست ذاتية للحاكم أو صاحب السلطان . . ولو كانت ذاتية لما زالت عنه . . ولكن الله سبحانه وتعالى لأنه هو الذى أعطى الأسباب يستطيع أن يزيلها . . وأمام هذه الحكمة التى تحدث فى عالمنا كل يوم . . يسجد الناس لله بدلا من السجود لغير الله . . سواء أكان أسبابا أم بشرا . . ويحسون أن القوة والمنعة هما من الله وليسا من أى إنسان .

يـــارب

ولا تقتصر طلاقة القدرة على قمة الأمور الدنيا . . بل هى فى أكبر الأشياء وفى أبسط الأشياء . . طلاقة القدرة تتدخل لتنصر مظلوما ضعيفا من ظالم قوى . . وتقتص من إنسان ارتكب جريمة وتصور أنه نجا من العقاب . . أو تعيد حقا حسب صاحبه أنه ضاع . . أو لتذل جبارا يؤذى الناس وتجعله عاجزا عن رد الأذى عن نفسه .

تلك طلاقة القدرة . . وكلمة (يارب) تخرج من قلب المظلوم : فلا تجد بينها وبين السماء حجابا . . وتتدخل السماء لتزيل ظلما . . وتعيد حقا . . وتصحح الموازين فى الأرض . . ولذلك فإن المؤمن لا يعمل بنفس مفهوم الكافر . . فأساس عمل الكافر المال الذى ينتج عن العمل بصرف النظر عما يقوم به .

ولكن المؤمن يضع دائما اسم الله مع العمل . . ويبدأ العمل دائما باسم الله .



الفصل الخامس

حركة الحياة في الكون

حركة الحياة فى الكون

الله سبحانه وتعالى نظم بالمنهج حركة الحياة فى الكون .. لماذا ؟ لأن حركة الحياة هى مقصود كل إنسان سواء كان مؤمنا أو كافرا .. فكل منا يريد أن يتحرك فى الحياة ويحصل على رزقه وقوته ، وعلى ما يستطيع الحصول عليه مما يعينه على حياته .. لذلك كان المؤمن متحركا فى الحياة .. والكافر متحركا فى الحياة .

ولكن الله سبحانه وتعالى رسم منهاجا للإنسان المؤمن .. يتحرك فيه فى حياته ولكن هناك فارقا بين تحرك الكافر وتحرك المؤمن .

الإنسان المؤمن يتحرك فى الحياة وفقا لمنهج الله سبحانه وتعالى .. وهو لا يهتم فى سبيل ذلك بضرر دنيوى أو ما يقال عنه بالضرر الدنيوى .. فإذا وجد مالا حراما يستطيع أن يأخذه امتنع عن ذلك .. وإذا وجد شيئا يستطيع أن يستولى عليه بالباطل رفض أن يفعل .. وإذا استطاع أن يعتدى على حق ضعيف تراجع ولم يقدم .. كل هذه تعتبر عند أهل الدنيا كسب وغنائم .. ولكنها بالنسبة للإنسان المؤمن خسارة كبيرة لأنه يعلم أن الله سبحانه وتعالى سيحاسبه عليها فى الآخرة وأن الثواب الذى قد يحصل عليه فى الدنيا محدود جدا .. ولكن ثواب الآخرة بلا حدود .. ومن أجل هذا كان المؤمن يسير فى حركة الحياة على أساس الحق .. وعلى أساس أن يأمن كل إنسان على حقه .. بينما الكافر يسير فى الحياة على أساس النفع العاجل .. إنه يريد كل ما تعطيه الحياة من خير ظاهر .. حتى ولو كان هذا النفع العاجل سيؤدى به إلى الهلاك والدمار .. فنجده يقدم على سرقة مال غيره .. وربما خاطر بحياته من أجل ذلك .. وهو فى الدنيا لا تحكم حركته حدود ولا قيود .. فإذا وجد من هو أضعف منه سلب ماله .. وهو ينطلق فى حركة الحياة يأخذ من عرق سواه ..

والذى يفسد الحياة وحركتها على الأرض هو أن يوجد احياء دماؤهم من عرق سواهم .. وما يزيدهم فسادا ألا يكون الإنسان آمنا على نفسه وماله .. فى هذه الحالة تضيع حركة الحياة فى الكون .. ويصبح المجتمع أشبه بالغابة التى تعيش

على مبدأ السلب والنهب . . وسفك الدماء وأخذ حقوق الآخرين . . وحينئذ لا يمكن أن تكون الدنيا أمينة ولا مأمونة بالنسبة لأى انسان . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحافظ على حقوق الضعيف قبل القوى . . وأن نرى من لا ناصر له . . فإذا فعلنا ذلك صلح المجتمع كله .

قضة المنهج واحدة

ولقد كانت قضية المنهج منذ خلق الله آدم حتى الآن قضية واحدة . . هى قضية الحق والعدل والإيمان بالله الواحد الأحد . . وكان الله سبحانه وتعالى يرسل الرسل . . كل رسول يأتى يؤمن بمن قبله ويشدد على أمته أن ينصروا الرسول المقبل . . لماذا ؟ لأن رسالة السماء للإنسان أو البنى آدم فى جوهرها واحدة . . ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أخذ ميثاقا على الأنبياء . . وكان المثياق أن كل رسول يأتى فى عصر رسول آخر يؤمن به . . كما حدث بالنسبة لابراهيم ولوط مثلا . . فقد أرسلا فى عصر واحد . هذا يعالج داء . . وهذا يعالج داء آخر . . وكان كل منهما مؤمنا بالآخر . . حتى أن ابراهيم عليه السلام جادل الملائكة حينما جاءوا يهلكون قوم لوط . . جادلهم فى أمر لوط . . فقال له الملائكة نحن أعلم بمن فيها . . ذلك أنهم يتلقون أوامرهم من الله سبحانه وتعالى . . فهم بذلك أعلم .

إذن فكل رسول جاء فى عصر رسول آخر كان يؤمن به . . وإن لم يكن فى عصره كان يوصى أمته أن ينصروا الرسول المقبل ويطيعوه . . وكان أفراد أى أمة شهداء على أنفسهم . . ونبى كل أمة شهيد عليها . . والله شاهد وشهيد على الجميع .

وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يحتفظ بانسجام تام فى الدعوة إلى منهجه منذ أول الخلق حتى نهايته . . فلا يتعصب قوم لملتهم أو لنبيهم لأنهم جميعا

يبلغون عن اله واحد منهجا واحدا . . وبذلك يكون موكب الرسالات موكبا متلاحما متكاملا متعاضدا . . وبذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين أنه لا حجة لنبى ولا لتابع نبى أن يصادم مؤمنا آخر برسالة سماء . . بل لابد أن يقف المؤمنون جميعا متصادمين مع من لا يؤمنون بالله سبحانه وتعالى . . ولكن ماذا يحدث إذ تولى بعض الناس الذين آمنوا برسول سبق عندما جاءهم رسول جديد مصدقا لما معهم . . ومبينالهم بعض الذى اختلفوا فيه . . إن الذى يتولى ويعطى ظهره للنبى الجديد يقول الله سبحانه وتعالى عنهم « **فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** » . . والفسق هو الخروج عن منهج الله سبحانه وتعالى .

الكمال الإيمانى

وهكذا أوجب الله علينا أن نأخذ الكمال الإيمانى من مواكب الرسل لأنه ما من رسول أتى وهاجم منهج الرسول الذى قبله أو سفهه . . أو حاول أن ينكره . . بل كل رسول جاء مصدقا بمن قبله ومبشرا بمن بعده . . فمن يأتى بعد ذلك فيقول أنا أقبل هذا ولا أقبل ذاك فإنما هو فى الحقيقة خارج عن منهج الله . . لماذا ؟ لأن الرسالات فى جوهرها واحد . . ومصدرها واحد . . فلا يعقل أن تأتينى رسالة من نفس المصدر فأرفضها وأقول اننى لا أؤمن بها . . مع أن الرسول الذى جاء مبلغا عن الله بمعجزات من الله بصدق رسالته . . بمنهج عن الله يصحح ما قد يكون قد حرف .

ولكن ما الذى يحدث ؟

فى الحقيقة أن رفض الإيمان بالرسول الجديد تكون له أسباب ، وهذه الأسباب هى التى تدفع الذين اعتنقوا منهج الرسول السابق من تصديق الرسول الجديد . . والأسباب هنا واضحة وظاهرة ، وهى أنه قد حدث تحريف فى منهج الله لصالح البشر . . وأن عددا من الناس القائمين على المنهج وعلى حفظه قد

حرفوا فيه لاستفادة البشرية . . ليصبحوا هم المستفيدين . . ووضعوا فيه ما لم يبلغه الله ، وما لم يقله رسله . . ثم نسبوه لله سبحانه وتعالى ، هذا التحريف هو الذى يمنعهم من اتباع الرسول الجديد . . لأن الرسول قد جاء بمنهج حق يجردهم من ميزات الدنيا التى وضعوها لأنفسهم واستباحوها ونسبوها ظلما وعدوانا إلى الله سبحانه وتعالى .

وفى هؤلاء يقول الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا تقف أمور الدنيا ومغانمها وما تعطيه حائلا بين بعض الناس وبين تصديق الرسول الجديد . . فهل يمكن أن نقول إن هؤلاء الناس بقوا على إيمانهم . . أم أنهم خرجوا عن منهج الله .

الله سبحانه وتعالى قد وضع منهجا يحيط بالإنسان فى كل تصرف له ولذلك لا تجد تصرفا بشريا لا يخضع لمنهج الله .

وقول الله تعالى « **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** » دليل على ذلك . .

ولقد أراد أحد الناس أن يتحدى الشيخ محمد عبده فى هذه النقطة فجاء إليه وقال له : إن الله سبحانه وتعالى قد قال : « **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** » . . فرد الشيخ محمد عبده نعم القرآن لم يفرط فى شىء . . وهنا قال السائل أخرج لى من القرآن ما يبين كم رغيفا تصنع من أردب القمح . . وقام الشيخ محمد عبده إلى أحد الخبازين وسأله كم رغيفا يصنع من أردب القمح . . فرد الخباز كذا رغيفا فقال السائل مندهشا وهل هذا من القرآن ؟ فرد الشيخ محمد عبده نعم من القرآن . .

وقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وحتى أطيع القرآن وأمضى على المنهج سألت أهل الذكر فأفتونى . .
وهكذا لو فكرنا قليلا لوجدنا أن منهج الله يحيط بحياة الإنسان إحاطة كاملة . . ومادمنا جميعا نعلم أن لهذا الكون إلها واحدا ، ونؤمن بذلك . . ومادمنا جميعا نعرف أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل رسله . . كل رسول مصدق لمن قبله ومبشر بمن بعده ، فلا نأتى ونقول إننا لا نؤمن بمنهج الله وخاتم رسله . . إلا أن يكون هناك غرض شخصى . . منهج يوافق الهوى . . منهج هو من صنع الناس للناس . . والعجيب أن الإنسان فى بعض الأحيان يفضل أن يتبع منهجا وضعه البشر . . من أن يتبع رسالة السماء .

وهنا لابد من تفسير . . إن الإنسان لا يجب أن يتبع مساويا . . بل لابد أن يكون الذى يتبعه أعلى منه . . فما الذى يجعل إنسانا يتبع منهجا بشريا من مساو له . . والجواب على ذلك بسيط . . حين تتلاقى المصالح والأهواء ويحلل الحرام ويباح كل منكر . . تجد الإنسان يتبع منهج الإنسان . . هذه هى الحقيقة التى يجب أن نعيها حينما نسمع عن تشريع البشر للبشر . . وحينما نسمع أن بعض الناس وبعض الشعوب والأمم تترك منهج الله الذى لا هوى فيه والذى يعطى لكل إنسان حقه . . والذى هو أمن وأمان للجميع . . تترك هذا التشريع وتتبع تشريعا بشريا . . حينئذ نقول هوى النفس دخل هنا . . وأصبح التشريع يوضع لصالح من يحكم . . فإذا تغير الحاكم تغير التشريع . . وهكذا يظل هذا التشريع يتبدل ويتغير حتى يصل إلى مجموعة من المتناقضات التى هى أساسا هوى النفس . . الذى قال الله سبحانه وتعالى عنه :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾

(سورة المؤمنون)

وإذا نظرنا لأى تشريع بشرى ، فلابد أن ننتظر أولا إذا كان هذا التشريع يحقق ميزة لأولئك الذين وضعوه . . حينئذ نعرف أين هو هوى النفس وحينئذ نعلم من الذى يشرع . . وحينئذ تبدو لنا الأسباب التى ابتعد من أجلها بعض الناس عن منهج الله . . وجعلوا الخلق مقابلا للخالق . . إنه هوى النفس الذى يحكم مناهج البشر .

الله سبحانه وتعالى لم يترك خلقه إلا بعد أن بين كل شىء لهم . . وبين لهم أنه خلق هذا الكون من أجلهم . . كيف أخضع كل ما فى الكون من نبات وحيوان وجماد للإنسان . . بل إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعطينا الحجة البالغة ، فخلق أشياء لا نقدر عليها ثم سخرها لنا . . فالشمس والقمر والبحار والكون كلها فوق قدرة الإنسان . . والسؤال : هل أنت سخرت هذا كله ليكون فى خدمتك . . سخرته بقدرتك وقوتك وعلمك . . الجواب طبعا لا . . فإذا كان الجواب كذلك . . فما هى القوة التى سخرت لك ما لا تقدر عليه . . فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى سخر ، وهو الذى وضع المنهج **« أفغير دين الله يبغون »** .

ولكن الهوى النفسى الذى سيطر يحاول أن يتخذ صورا معينة . . مثل تطور الكون أو عصر العلم . . أو عصر الاكتشافات العلمية . . إلى آخر هذا الكلام . . وهذه كلها مبررت للخروج من منهج الله إلى هوى النفس البشرية . . فمنهج الله لا يقيد إنسانا من أن يبحث فى الأرض وأن يستكشف . . بل إنه يحثه على ذلك ولكن فى حدود المنهج . . فلا يأتى إنسان كشف الله له سرا من أسرار الحياة يتخذ من هذه النغمة طريقا إلى محاربة الله فى الأرض ممجدا فيما كشف ناسبا الفضل لنفسه متناسيا نعمة الله عليه . . نقول له هل هذا الشىء الذى اكتشفته كان موجودا فى الكون أم لم يكن موجودا . . هل أضفت شيئا إلى الدنيا . . ويكون الجواب لا . . لأنه لا أحد يستطيع أن يضيف إلى الدنيا شيئا . . ولكن الإنسان حين يكتشف خاصية جديدة وضعها الله فى الأرض وأخفاها إلى أن جاء وقت ميلادها . . إذن فهو لم يضف شيئا إلى

الكون . . ثم نأتى بعد ذلك إليه لنسأله . . أنت تريدنا أن نتبع منهجك ونترك منهج الله بدعوى انك الأحدث أو الأقرب إلى العقل والفهم . . أو الأقرب إلى المعجزة العلمية كما يدعون . . ونحن نريد أن نسألك هل ما اكتشفته من علم يساوى عظمة خلق الشمس التى تشرق منذ ملايين السنين على الكون . . هل هذا الذى اكتشفت يساوى عظمة خلق البحار والأنهار والجبال . . هل ما اكتشفته يساوى عظمة هذا الكون كله . . فإذا كان جوابك نعم . . فلك الحق أن تقول انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم . . وإذا كان جوابك لا . . فكأنك تحتقر عقولنا لانك تقدم شيئا تافها ، وتطالبنا أن نترك من أجله عبادة الله بكل العظمة والقدرة الظاهرة أمامنا .

لو انك خلقت كونا جديدا لا أقول أبدع من الكون ولا أقول مماثلا لكون الله . . ولكنى أقول أصغر من كون الله ، لكان لك الحق فى أن تدعى . . ولكنك حتى الآن عاجز عن أن تخلق ذبابة . . ومع ذلك تريد أن تخرجنى من عبادة ربى بدعوى العلم . . أى علم هذا الذى يدعو للخروج عن طاعة الخالق واتباع هوى النفس فى أشياء لم توفر أساسيات للبشرية وإن كانت قد أعطتها شيئا من الرفاهية . . فقد سلبتها الأمن والأمان والحياة الطيبة وكل شيء جميل فى هذا الكون ، وملأت الدنيا بالتلوث وشبح الحرب والقتل والسلب والنهب .

على انه لابد من ايضاح لهذه النقطة . . تلك المخترعات البشرية متى تنشط وتزدهر . . إنها تنشط فى أوقات الحروب . . فى أوقات القتال والقتل عندما تشتعل الحرب ويريد كل إنسان أن يسيطر على الآخر ويقهره ويذله . . ويريد شعب أن يسيطر على باقى الشعوب ويذلها ويسلبها خيراتها . . حينئذ يبدأ الانفاق بسخاء شديد مع البحث عن أدوات وأسرار مدمرة فى هذا الكون . . وإذا رجعت إلى تاريخ معظم المخترعات تجد انها أساسا كانت للشر والقتل . . ثم بعد ذلك عندما انتهت الحرب بدأ تطويرها للأغراض السلمية . . القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية وحتى ما يسمونه بغزو الفضاء ليس لخدمة الإنسان

ورفاهيته ، ولكن ليسيطر البشر على البشر ويقهروهم . . فإذا استخدم بعد ذلك أى اختراع من هذه الاختراعات لخدمة الإنسانية . . فلا يجعلنا ذلك ننسى الهدف الأساسى الذى تم من أجله هذا الاختراع ونهلل ونكبر .

والله سبحانه وتعالى خلق فى الكون أساسياته أو مقومات الحياة . . فخلق لنا الماء الذى نشربه . . ثم جاء العلم ليجعل الإنسان بدلا من أن يشرب من البئر أو الترعة يشرب ماء مثلجا فى منزله . . وخلق الله الإنسان صالحا للحركة يستطيع أن ينتقل من مكان لآخر ، وخلق له الدواب التى تعينه على ذلك . . وجاء العلم المخلوق من الله وكشف للإنسان نوعا من الرفاهية يستطيع أن ينتقل بها ، وخلق الله سبحانه وتعالى للإنسان الطعام . . وجاء العلم المخلوق من الله ليدخل بعض التحسينات على إنتاج الطعام فيجعله أكثر غزارة أو أحسن طعما .

وهكذا كل ما فعله الإنسان كان اضافة ولم يكن أصلا فى شىء . . حتى اللبن الذى تحدى الله سبحانه وتعالى به البشر . . وجعله آية من آياته اختص بها نفسه . . عجز العلم حتى الآن عن أن يوفر كوب لبن واحدا بطريقة صناعية . . وظلت الأبقار هى الأساس تسقى الدنيا كلها لبنا كل يوم بوفرة كبيرة . . وعلماء العصر بكل قوتهم عاجزون عن أن يعطونا كوبا واحدا من اللبن . . ثم بعد ذلك لا يخجل إنسان من أن يقول لقد بدأ عصر العلم وانتهى عصر الإيمان . . ويدعو لعدم الإيمان بالله .

قدرة الخلق

اذن العلم لم يخلق أساسيات الحياة ولا هو أعطى شيئا لم يكن موجودا ولكنه وفر الرفاهية فى الكون . . فما الذى يدعونا لأن نترك الله ونقول أن عصر العلم قد بدأ ؟

على أننا إذا أردنا نظرة منصفة . . فلابد أن ننظر إلى عالم اليوم وما فيه من شرور وحروب وقتل ونهب للأموال فكل هذا الذى نراه ، ونسأل أنفسنا . . هل ما وفره العلم يساوى كل هذا الشقاء . . هل سلب حرية الإنسان وأمان الإنسان وأن إحساس الناس بأنه فى أية لحظة يمكن أن تأتى حرب نووية تفنى العالم كله . . احساس الملايين من البشر بعدم الأمن والأمان هل يساوى هذا فى حياة الناس الشقاء الذى يعيشونه الآن .

إننا نجد أوربا الآن فى موجة عارمة اسمها العودة إلى الطبيعة . . وهذه الموجة التى انتشرت بين الشباب تطالب بأن يعود الإنسان إلى الطبيعة التى خلقها الله . . وأن يدمر الناس القنابل النووية وغيرها من أسلحة الدمار ويتخلصوا من كل ما يلوث الجو ويفسده . . ويعودوا إلى الطبيعة السمحة بكل ما تأتيه من خير بلا شرور . . ومن حياة بلا آلام . . ومن راحة بال بلا قلق . . ومن كل شىء حلو . . ولو أننا نحن الذين طالبنا بذلك لقالوا متخلفين . . ولكنها أوربا التى يعتبرها هؤلاء الناس أساس الحضارة والمدنية تطالب بالعودة إلى الطبيعة . . ولعل فى هذا ردا وردا علميا على ضيق النفس البشرية مما سببته وتسببه المدنية من آلام ومشاكل .

ما معنى هذا . . هل معناه أن نترك الدنيا لغيرنا . . أبدا . . ولكن معناه أن نسير فى كل شىء بمنهج الله سبحانه وتعالى . . فإذا عملنا عملنا باخلاص . . وإذا أخذنا لم نأخذ حقوق أحد . . ولم ننسب فضلا لغير أهله . . مادمنا نتبع المنهج فلنأخذ الدنيا كلها ونبحث فى العلم كيفما نشاء . . ولكن دون خروج عن المنهج حينئذ يحدث انسجام بيننا وبين الكون . . ونحس بالسعادة فى كل خطوة نخطوها . .

ولكن الذى يحدث أننا نريد أن نترك منهج الله بهذه الأشياء الظاهرية التى تبهر ضعاف النفوس . . والمفروض أن كل كشف علمى فى الأرض يزيدنا التصاقا بالله سبحانه وتعالى . . فهو إظهار لقدرة الله فى الكون وإبداعه فى الخلق .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » أى الذين فتح الله لهم بابا من أبواب العلم . . كان يجب أن يكونوا أكثر الناس خشية لله . . لأن الله أطلعهم على آية من آياته وأفهمها عقولهم . . ولذلك كان يجب أن يكون الشكر على قدر العطاء . . ولكن بعض العقول تغتر وتعتقد أنها هى التى فعلت . . ولا تستطيع أن تفسر لنا كيف أنه فى بعض الأحيان تعجز هذه العقول عن أن تحرك أصبعا من أصابع صاحبها عندما يداهمه المرض ويصبح عاجزا عن الحركة . . ولا أن تقول لنا كيف أنها تقف عاجزة لا تستطيع أن تمنح نفسها الحياة . . ولا تقدر أن تعطى لنفسها الصحة .

على أن المشاكل التى تنشأ فى كثير من الأحيان من اكتشافات علمية يهلل لها البشر ، تجعل الشك فى القيمة المطلقة لهذه الاكتشافات موجودا فى كل لحظة . . فهؤلاء الذين قدموا المبيدات الحشرية هم الذين حرموها . . وكثير من الأدوية التى قيل إنها تفعل المعجزات وتشفى كثيرا من الأمراض حرم استعمالها تماما بعد سنوات بسيطة . . لأنه ثبت أن لها أضرارا تفوق منافعها مئات المرات . . والسجل العلمى حافل بمثل هذه الأشياء .

على أن الإنسان يقتله جشعه . . فهو يملك المال الذى يكفيه طوال حياته ويزيد . . ولكنه يطلب مزيدا من المال ويشقى نفسه فى الحصول عليه . . وكل مخلوق لله يأكل على قدر حاجته . . الطير تلتهم من الحبوب ما يكفيها فقط وتترك الباقى . . وأنت إذا وضعت كمية كبيرة من الغذاء أمام أى حيوان فإنه لا يأكل منه إلا حاجته ويترك الباقى . . أما الإنسان فهو الوحيد الذى يأكل أكثر من حاجته . . ويشرب أكثر من حاجته . . ويريد أن يملك أكثر من حاجته . . وهذا الجشع البشرى هو أساس الشقاء الذى تعانيه البشرية . . وفى كل ما هو يزيد عن الحاجة من طعام أو شراب أو مال يكنز بلا حساب . . فهو بعيد عن منهج الله .

الإســـلام

والله سبحانه وتعالى خلق فى كونه أشياء أسلمت لله سبحانه وتعالى ورفضت الاختيار . . رفضت أن تكون مختارة فى طاعة الله . .

والله سبحانه وتعالى يقول « **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** » . . إذن هذا الكون كله قد أسلم ورفض أن يكون مختارا فى أن يؤمن أو لا يؤمن . . أسلم طوعا . . بل اختار الإيمان دون أن تكون له إرادة فى المعصية . . أما الإنسان فقد قبل أن يحمل الأمانة وأن يأتى الله باختياره عن حب . . ومادام يستطيع أن يأتى فهو يستطيع أيضا ألا يأتى . . ومادام قد أعطى حرية الإيمان وحرية أن يؤمن . . فقد أعطى أيضا حرية ألا يؤمن . . ما هى الأمانة . . هى شيء أئتمنك الله عليه . . فإذا أردت أن تبسطها وتضرب مثلا ولله المثل الأعلى . . أقول هب أننى جئت إليك وأودعتك شيئا وقلت هذه أمانة عندك سآخذها عندما أطلبها . . أنت فى هذه الحالة وفى سلوكك شيئان . . إما أن تأخذ هذا المال الذى أودعته . . وتبعثره فيما ينفع ولا ينفع ولا تحافظ عليه ولا ترعى الأمانة حق رعايتها . . وفى هذه الحالة يأتى وقت السداد فلا تجد عندك شيئا . . وإما أن تحافظ عليها وتنميها وتزيدها . . ويأتى السداد فتجد ما تسد به ويفيض .

والله سبحانه وتعالى حين أعطانا حرية الاختيار . . وأعطانا كل ما فى الكون وسخره لنا . . كان هذا من أجل الإنسان . . ثم أعطانا الأمانة . . وهى العقل وحرية الاختيار وأشهدنا على نفسه . . فقال . . أنا ربكم وهذه معجزاتى . . الأرض والسماء والجبال . . والشمس والقمر والنجوم . . وكل ما فى الكون مسخر لكم . . وخلقته من أجلكم . . وأنا أقول لكم اننى أنا الخالق ولا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق . . إذا استخدمتم عقولكم رأيتمونى فى كل آية فى الأرض . . وفزعتم إلى فى كل ما تخافون منه . . فلقد وضعت لكم منهج الحياة

الذى يسعدكم فى الدنيا والآخرة . . فمن أدى أمانته نحوى فى رحلة الدنيا القصيرة . . متعته فى الدنيا والآخرة .

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة فصلت)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة طه)

بعض الناس حمل الأمانة وراح يضيعها فيما لا ينفع وفيما نهى الله عنه . . معتقدا أن الدنيا دائمة . . وأن الحياة بلا نهاية كافرا بلقاء الله . . وبعض الناس آمن وحفظ الأمانة . . حتى إذا جاء يوم اللقاء . . قال يارب أعطيتنى الأمانة فحفظتها وعملت بها فجازنى أحسن الجزاء .

الإسلام . . والسيف

على أن بعض الناس . . يعتقد أنه من الاسلام أن تجعل من لم يؤمن طوعا يؤمن كرها . . فإذا كان هناك إنسان لا يصلى فمن حقك أن تكرهه على الصلاة ولو اضطررت أن تجلده . . وإن كان هناك إنسان لا يؤمن . . فبالسيف يؤمن . . نقول له : ليس هذا هو الاسلام . . ولا يمكن الوصول للاسلام بالكره أو بالاكراه . . ولم يسلم أحد كرها ، بل كل الذين أسلموا أتوا باختيارهم طائعين . . ولا يقبل قول أن الاسلام انتشر بالسيف . . ذلك أن السيف رفع فى الاسلام لحماية حرية الإنسان فى أن يؤمن أو لا يؤمن . . ولمنع الاكراه . . فلقد

كانت هناك قوى متسلطة على الناس بالسيف . . تكرههم على عبادة غير الله ، وترغمهم على عقائد زائفة . . بل إن هناك من كانوا مكروهين على عبادة البشر . . فكان الحاكم ينصب نفسه إلها . . من عبده فله الأمان . . ومن لم يعبده يقتل . . وهنا قال الاسلام لا . . قفوا عن حدكم . . ودعوا الناس أحرارا فى اختيار ما يعتقدون . . دعونا نعرض عليهم الاسلام . . وأعرضوا أنتم عليهم ما أردتم . . « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . . وكانت سماحة الاسلام . . وقوة الاسلام . . وحجة الاسلام هى الدافع لأن يعتنقه الملايين . . لأنهم رأوا فيه دين الحق .

ولو أن ما يقوله بعض الناس صحيح من أن الاسلام لا ينتشر إلا بالسيف . . فأين هو السيف الذى يجعل الألوف يعتنقون الاسلام كل يوم . . وأين هو السيف الذى يجعل الملايين يدينون بدين الاسلام . . بل لو كان هذا من أساس الدين لقام المسلمون بقتل كل إنسان غير مسلم فى الدول التى فتحوها . . وكان فى هذه الدول غير مسلمين . . نحن ما فرضنا دينا على إنسان غير مسلم فى بلاد يحكمها الاسلام . . بل تركناه على فكره . . له إن شاء أن يسلم . . وله إن شاء أن يبقى على دينه . . ولعل وجود غير مسلمين فى بلاد فتحها الاسلام فى بداية الدعوة الاسلامية . . بل وحماية هؤلاء الناس غير المسلمين وتوفير الأمن والأمان وحرية العبادة لهم . . لدليل على أنه لا إكراه فى الدين . . وأن الاسلام يؤمن بحرية العقيدة . . وأن الله سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يأتوا إليه طائعين لا مكرهين .

ولكن كلنا نسلم لله كرها وبلا اختيار . . أنت ترى أن هناك تناقضا فى هذا الكلام . . ولكن فى الحقيقة ليس هناك تناقض . . بل هذه هى طبيعة الحياة وسنة الله . فى حياة كل فرد منا أشياء يسلم فيها باختياره . . الله سبحانه وتعالى أعطاه فيها ارادة أن يسلم أو لا يسلم . . فقال له افعل . . ومادام الله قد قال لك افعل . . ففى مقدورك ألا تفعل . . وإلا لما قال الله افعل . . وهناك أشياء

قال الله فيها لا تفعل . . ومعنى ذلك أن فى مقدورك أن تفعل . . قول الله سبحانه وتعالى بافعل ولا تفعل . . لا يكون إلا إذا كان لك حرية الاختيار . . وإلا يصبح الأمر هنا بلا معنى . . فكيف يقول لك الله سبحانه وتعالى افعل فى شىء أنت مجبر على فعله لا اختيار لك فيه . . أو يقول لك لا تفعل فى شىء أنت لا تستطيع أن تفعله . . حينئذ يكون الأمر فاقدا معناه . . إلا إذا وجد الاختيار .

ولكن هناك أشياء فى الكون . . أنت مقهور أن تسلم فيها لله . . يوم ولادتك مثلا . . هل تستطيع أن تختاره وتقول سأولد يوم كذا ولا يولد يوم كذا . . أبوك وأمك هل لك اختيار فيهما لتقول أنا سأختار أبى هذا الرجل الغنى وأمى هذه السيدة الثرية . . يوم وفاتك مثلا أتستطيع أن تقول لن أموت اليوم سأموت غدا أو فى العام القادم . . ما يقع عليك من أمراض وأحداث هل أنت مختار فيه ؟ . . هل تستطيع أن تقول سأمرض بهذا المرض ولن أمرض بهذا المرض . . نموك مثلا . . هل تستطيع أن تقول لن أنمو وسأبقى طفلا . . أو لن أصل إلى الشيخوخة وسأظل شابا . . قلبك ومعدتك . . هل تستطيع أن تقول لقلبك لا يدق لمدة اسبوع مثلا . . أو سأوقف معدتى عن الحركة لمدة شهر . . أو لا أريد للدورة الدموية أن تمشى فى جسمى عدة أسابيع . . أو سأتوقف عن التنفس ساعة أو ساعتين . .

كل هذا لا تستطيع أن تفعله بل أنت مكره فيه . . فالله هو الذى يختار يوم ولادتك . . ومن هو أبوك ومن هى أمك . . وهو الذى يختار يوم ولادتك . . ومن هو أبوك ومن هى أمك . . وهو الذى يضع فيك الحياة لتنمو . . فإذا أراد أن يسلب الحياة فهو الذى يسلبها . . ففى هذه الأشياء وكلها سواء أردت أو لم ترد أنت مسلم لله سبحانه وتعالى كرها . . أى دون إرادة منك . . بل الله يفعل ما يريد سواء أردت أو لم ترد .

إذن حينما يقول الله سبحانه وتعالى : « **وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها** » . . فليس معنى ذلك أنك تكره الناس على الإسلام . . ولكن

معناه أن الله سبحانه وتعالى جعل فى حياة بعض مخلوقاته ومنها الإنسان والجن مثلا مناطق الاختيار . . يعطيهم فيها الحرية فى أن يختاروا . . ومناطق هم مكرهون فيها . . مقهورين لله لا اختيار لهم . . قد يحدث لك شيء أو تمرض بمرض معين أو يقع عليك ما تكرهه . . لو أن لك ارادة حرة فى هذا لمنعت حدوثه مادمت تكرهه . . ولكنك مقهور لأمر الله فيه لا تستطيع دفع الأمر عن نفسك ومادمت تكره شيئا ولا تستطيع دفعه عن نفسك . . إنك مكره أن تسلم فيه لله سبحانه وتعالى فيما أراد . . إذن فأنت فى هذه الأمور مسلم لله كرها . . أى دون أى اختيار منك . . بينما فى أمور الدين أنت مسلم لله طوعا أى باختيارك . . فأنت تستطيع أن تصلى أو لا تصلى . . وأن تزكى أو لا تتزكى . . وتصوم ولا تصوم . . وتحج أو لا تحج ؟

* * *

وبعض الناس يجاهر بالكفر بالله ويتباهى . . نقول له لو انك فعلا تستطيع أن تخرج من طوع الله . . فأرنا كيف تتصرف فى الأمور التى أكرهك الله عليها . . أرنا كيف تستطيع أن تختار يوم مولدك أو يوم وفاتك . . أو أن تمنع المرض عنك . . أو أن تغير ما يقع عليك من أقدار أو أن توقف نمو جسدك . . إلى آخر الأمور التى أعلن الله سبحانه وتعالى أنك مقهور فيها . . فإذا استطعت ذلك فقد يكون لك حجة . . فإذا لم تستطع ولن تستطيع . . فإنك فاقد الحجة فى نفسك وفى ذاتك . . فكيف تريد أن تقنعنا بما أنت عاجز عنه . . لو انك تتحكم فى قدرك كما تدعى فأرنا كيف لا تسلم لله فى يوم مولدك ويوم أن تموت وفى الأحداث التى تقع عليك ولا تستطيع دفعها . . أنت خاضع لله . . مسلم له كرها . . أى رغما عنك . .

إذن قول الله سبحانه وتعالى **« وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا »** . . نأخذ ذلك لأجناس الأرض التى اختارت الإسلام لله ونأخذ معها الإنسان المؤمن الذى أسلم لله فى كل الأمور . . فهو أسلم لله فى الأمور التى له

اختيار فيها وفى الأمور التى ليس له فيها اختيار . . فالإنسان المؤمن أسلم قيادته لله سبحانه وتعالى فى كل أمر من أمور الدنيا .

وإذا أتينا إلى قوله تعالى « وكرها » . . فهذه النسبة للإنسان الذى يرفض أن يسلم قيادته لله فى الأمور التى له فيها اختيار . . فهو يكفر بالله ويرفض أن يسلم قيادته له . . حينئذ نقول : رغم رفضك طوعا أن تسلم قيادتك لله فيما ليس لك فيه اختيار . . فإنك تسلمها لله قهرا أو كرها فيما ليس لك فيه اختيار . . فأنت لا تستطيع أن تدفع عن نفسك أمرا من أمور الله سبحانه وتعالى أنت تكرهه . . الله يجرى عليك ما يشاء . . وأنت تسلم وتذعن وأنت كاره لأنه لا ختيار لك فى أشياء كثيرة مثل مولدك ووفاتك والأقدار التى تتم عليك .

إرادة الله

إذن فالله سبحانه وتعالى هو الذى يملى إرادته فى كثير من أمور حياتك التى لم يترك لك اختيارا فيها . . لكان علينا أن نفهم إن الله سبحانه وتعالى ترك لنا الاختيار فى عدد من الأمور وأراد لنا . . فلا يأتى إنسان ويكره إنسانا آخر على شىء تركه الله مختارا فيه . . كأن يقتله إذا لم يسلم . . أو أن يستخدم السيف لإجبار الناس على الإسلام . . الحرية هنا من الله سبحانه وتعالى . . أرادها للإنسان . . وأراد الله ألا تطغى إرادة بشر على إرادة بشر . . وألا يكره إنسان إنسانا آخر على أن يفعل شيئا رغم ارادته . . وهذه هى الرحمة . . الرحمة من الله فى ألا يجعلك مقهورا لبشر مساو لك . . بل يجعلك حرا فيما أراد أن تكون لك فيه حرية الاختيار .

* * *

وأنت حين تفكر فى منهج الله وفيما قاله بافعل ولا تفعل . . نقول لك إذا فعلت ما الذى يفيد الله مثلا . . وإذا لم تفعل ما الذى يضر الله . . لا شىء وإذا

كان الآمر له مصلحة فيه وهوى شخصى . . كأن يأمرك إنسان أن تفعل شيئا لفائدته . . حينئذ يكون الفعل لمصلحة من يأمر وليس لمصلحة من يقوم به . . فإذا لم يكن للآمر مصلحة فيما أمر به . . فلابد أنه يريد مصلحة الفاعل نفسه . . تماما كما تأمر ابنك الصغير بأن يذاكر أو يجتهد . . ولا يضيع وقته فى اللهو والعبث حتى ينجح فى الامتحان . . قد يتحمل الابن شيئا من المشقة فى المذاكرة . . ولكنك مع ذلك تأمره بالمذاكرة . . وقد يكون أحب إلى نفسه أن ينزل ويلعب ويلهو ولا يقرأ سطرا . . ولكنك مع ذلك تأمره بالمذاكرة وتكون حريصا عليه . . وتأخذ من رزقك لتأتى له بمدرس خصوصى يعينه .

وقد تتحمل أنت ضنك العيش وتقترض وتعمل أكثر حتى توفر له ما يضمن له النجاح . . هل الأمر هنا لمصلحة الآمر أم لمصلحة من يقوم بالفعل . . الجواب انه لمصلحة من يقوم بالفعل . . ومادام الأمر كذلك . . فإن من مصلحة الابن وحده أن يذاكر حتى إذا بلغ مبلغ الرجولة . . كان رجلا مرفوع الرأس مصون الكرامة . . يحترمه الناس . . وله مركز فى المجتمع . .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى لا هوى له ولا مصلحة . . فإن هدفه من منهجه للخلق هو اصلاح الخلق ذاته . . هو أن يكون هذا الخلق منسجما مع باقى الكون فى التسليم لله سبحانه وتعالى .

وإذا أردنا أن نعرف معنى:

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾

(سورة آل عمران)

فإذا كان من فى السموات ومن فى الأرض أسلم لله . . فمطلوب منك أنت أن تنسجم مع الكون وتسلم حركتك الاختيارية فيه لله سبحانه وتعالى . . فكل ما فى الكون سخر وقهر على أن ينفذ ما أراده الله سبحانه وتعالى . . والشمس والجبال وباقى المخلوقات قالت أتينا طائعين حتى تكسب ثواب الطاعة . . ولو

انها قالت لن نأتى طائعين لأتت كرها . . ولكنها أرادت أن تكسب ثواب الطاعة فاختارت أن تأتى طائعة .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى « وإليه يرجعون » أى ليست المسألة أن الله سبحانه وتعالى قد خلقك مختارا ثم خرجت من كونه وشردت . . لا أنت لم تخرج من كون الله . . وإذا كنت تريد أن توهمنا انك خرجت عن قهر الله لك . . فقل لنا كيف انك لن تعود إليه . . ادفع عن نفسك الموت ان استطعت واعط لنفسك الخلود . . ولكنك لن تستطيع . . فإذا كنت مقهورا فى أشياء داخل نفسك . . داخل ذاتك . . إذا كنت خلال فترة الاختيار وهى الحياة الدنيا خاضعا لله سبحانه وتعالى فى أمور كثيرة . . فكيف بعد أن تترك هذه الحياة .

أن كل من لم يسلم وجهه لله فى أمور الاختيار التى أعطاها الله سبحانه وتعالى له فى الدنيا يكون فى كبرياء كاذب . . لأن الكبرياء الصادق يرفعك إلى أن تنسجم فى الأمور الاختيارية مع إرادة الله سبحانه وتعالى . . وأن تسلم له قيادتك الاختيارية وهذا هو أساس الإيمان .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (١٣٦) ﴾

(سورة البقرة)

خاتم الأديـان

هنا فإن الله سبحانه وتعالى رد الأمر كله منذ بدء الخليقة حتى نهايتها للإسلام

والتسليم لله . . فهذه الأديان كلها إنما هى يكمل بعضها البعض **« قل آمنا بالله »** . . هذا هو الأساس والعهد . . الإيمان بمن ؟ بالله . . ثم اقرأ النص القرآنى الكريم : **« اليوم أكملت لكم دينكم »** . . أى ان الديانات السابقة كلها أكملها الله سبحانه وتعالى بالإسلام . . ولذلك مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ليكمل اللبنة الناقصة فى البناء الإيمانى . . فهذه الرسالة اكمالا للبناء الإيمانى الذى أراده الله سبحانه وتعالى . . ثم انظر إلى قول الحق تبارك وتعالى : **« وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم »** . . وتوقف عند كلمة **« وما أوتى »** لنعرف أنهم لم يأتوا بشىء من ذاتيتهم . . ثم قوله تعالى **« لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »** .

إذن فليس لأى رسول سلطة زمنية حتى يستقل بما أوحى إليه أو بما أوتى . . لماذا ؟ لأنه لا شىء هنا من ذاتية الرسل . . ولكن كل من الله . . ومن هنا لا أستطيع أنا أن أتوقف عند رسول معين وأفرق بينه وبين باقى الرسل . . وأقول سآخذ من هذا ولا آخذ من الذى بعده . . لأنه لو كان للرسول ذاتية لكان هذا جائزا لتقول أن فكر الرسول انضج من الرسول الذى بعده أو أكثر عمقا . . ولكن حيث لا ذاتية لأحد . . فإن الأمر من الله . . وبما أن الأمر من الله سبحانه وتعالى . . فاننا نأخذ من الله فيعطينا عن رسول بعد رسول حتى نصل إلى تمام الدين الذى هو من الله فى قوله تعالى : **« اليوم أكملت لكم دينكم »** . . ثم يختمها بماذا ؟ **« ونحن له مسلمون »** .

إذن البداية من الله . . والنهاية إلى الله . . وهى الإسلام لله سبحانه وتعالى . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال : **« ونحن له مسلمون »** تكون تلك هى القضية الكونية فى موقف الرسالات . . ومادام الإسلام هو ذلك الانقياد إلى الله من الإنسان فيما له فيه اختيار يكون الكون كله بما فيه الإنسان المؤمن المسلم قيادته لله سبحانه وتعالى . . يكون مسخرا لله . . فلا تأتى حركة لتعاند حركة أخرى . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه هو الذى خلق وسخر وهيمن . . ووضع لكل

إنسان فى مجال حركة الحياة قانونا يعصمه من أن يعتدى على غيره .

وإذا نظرت إلى البشر حينما اضطروا أن يعيشوا فى مجتمعات معا . . نجد أنهم حاولوا أن يضعوا لأنفسهم معايير تمنع التصادم والكوارث فى الأرض . . فإذا نظرنا إلى نظام الطيران مثلا نجد أن هناك هيئات دولية . . تحاول أن تمنع تصادم الطائرات فى الجو . . ومن هنا فإن لكل طائرة مسارا وإذنا بالطيران . . فكذلك منهج الله وضع حتى لا تصطدم حركة فى الوجود بحركة فى الوجود . . ولذلك فى قانون التسخير . . لا تصطدم حركة الوجود أبدا . . الأرض لا تصطدم بالشمس . . والقمر لا يصطدم بالأرض ولا بالشمس . . والجبال لا يصطدم بعضها البعض . . وهذا الكون الهائل المليء بالكواكب والمجرات والأجرام السماوية . . لا تجد فيه اصطداما يحدث . . بل انسجام غريب ودقة ما بعدها دقة . . لا تجد الشمس لا تشرق يوما فى موعدها ولا القمر يختفى دقيقة واحدة عن موعده . . بل كل شيء غاية فى الانسجام .

تعال إلى ما صنعه الإنسان ويقوده باختياره . . سيارة تصطدم مع سيارة وقطار يصطدم مع قطار . . ودولة تصطدم مع دولة . . ومخلوقات تصطدم كلها ببعضها البعض . .

هذا الاصطدام فى حركة الحياة . . ينشأ فى الأشياء التى جعل الله للإنسان اختيارا فيها . . أما الأشياء المسخرة للإنسان والتى ليس له فيها اختيار فإنها تسير فى غاية الدقة منذ أن خلقها الله .

وإذا كان الإنسان يضطر إلى أن يعدل قوانينه التى وضعها فى كل فترة من الفترات . . فهذا الاضطرار إنما ناشيء عن اصطدام حركة الحياة . . فنحن لم نسمع أنه جرى تعديل على نظام الكون منذ ملايين السنين . . فلا الشمس عدلت مسارها . . ولا القمر وجدناه يوما فى مكان ويوما فى مكان آخر بحجة التعديل أو التصحيح . . ولا الأرض غيرت مدارها . . فإذا كان الأمر

كذلك . . وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد وضع لنا منهج الحياة الذى ينسجم مع الكون ولا يصطدم أبدا . . فلماذا تشذ أنت عن الكون كله . . ولماذا يشذ بعض البشر عن منهج الله . . وبدلا من أن يأخذوا قوانين الله التى وضعها للحياة فى الأرض . . نجد قوانين قد وضعها مفكرون من البشر . . هذا قانون رومانى وهذا قانون فرنسى إلى آخره . . افنترك تشريع الله مع ما يحمله لنا من انسجام مع الكون ونتبع ما يشرعه البشر . . ثم نتساءل عن سر الشقاء والتصادم وعدم الانسجام فى الكون . . وفى كل فترة نعدل ونبدل ونغير . . بينما الله سبحانه وتعالى أعطانا القانون الأزلى الذى يحقق لنا الحياة الطيبة .

إذا أردنا أن نعرف لماذا تتصادم حركة الحياة فى الكون . . ولماذا هذا الشقاء . . فعلينا أن نتذكر ما الذى حطم الانسجام بيننا وبين الكون . . وأوجد هذا الشقاء .

* * *

وإذا أردنا أن نخرج من هذا كله . . فلابد أن نعرف أن البداية من الله ، والنهاية من الله . . وأنه لا حل إلا التسليم لله .



الفصل السادس

الله .. والعباد

الله سبحانه وتعالى له صفة العدل المطلق . . وعدل الله لا يجعله يميز بين خلق وخلق . . بل كلهم متساوون أمامه . . لا تفرقة ولا تمييز . . لذلك فإن من يقول أن التقدم العلمى هو دليل إيمانى ، إنما يمس صفة العدل . ذلك أن معنى هذا الكلام . . أن أولئك الذين سبقوا قبل حدوث هذا التقدم العلمى كان إيمانهم ناقصا . . لأن أحد أسس الإيمان كانت غير موجودة . .

ومن هنا فإن اطلاق مثل هذه الأشياء فى عموميات . . فى الحقيقة تمس قضية الإيمان بشكل مباشر . . فآيات الله الدالة على خلقه . . وعلى عظمته . . وعلى قدرته . . موجودة منذ بداية الخلق . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد وجد فى الكون من أسراره ما ينبىء بعظمة الخالق ويدل عليها . . ثم أعطى عطاء متجددا بعد ذلك لكل جيل غير الجيل الذى قبله . . هذا العطاء إنما لتعلم أن الله سبحانه وتعالى قائم على ملكه لا يتخلى عنه لحظة واحدة . . وان له عطاء متجددا لخلقه كل يوم . . بل كل ساعة . . حتى لا نحس نحن البشر أن الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون ثم تركه بعد ذلك يعمل بالأسباب وحدها ، بل لابد من الأسباب من طلاقة القدرة . . تكشف وتعطى وتمنح . . وتذكر الناس بأن الله ينصر الضعيف على القوى . . والمظلوم على الظالم . . حتى لا يستشرى الفساد فى الأرض . والسماء لا تتدخل إلا عندما لا تكون فئة من الخلق قائمة تجاهد فى سبيل الحق ، فإذا كانت هناك مثل هذه الفئة . . فإن السماء تبارك لها عملها وتنصرها . . أما إذا لم تكن هناك هذه الفئة فإن السماء تتدخل تدخلا مباشرا . لتنزع ظالما من قوته وسلطان ظلمه . . أو تزيح جبارا فى الأرض فتنتزعه من أسباب جبروته . . المهم أن يحدث شىء ما ، يجعل الناس تصيح من أعماقها (ربنا كبير . . ربنا موجود) . . وأنت حين تسمع هذه العبارة تحس أن طلاقة القدرة قد تدخلت لتصحح وضعا لا تستطيع أسباب الدنيا أن نصححها . . ذلك أن الله خلق الدنيا . . وخلق لها قانون الأسباب لتعمل به . . فإذا حدث شىء بقانون الأسباب . . كأن انتصر قوى على ضعيف . . أو تمكن ظالم من مظلوم ، فانك فى هذه الحالة تأخذ المسألة على انها أمر عادى . .

لماذا ؟ لأن هذا هو قانون السببية الذى تسير عليه الحياة فى عمومها ، والذى نشترك فيه جميعا . . فأنت لكى تحصل على الرزق مثلا يجب أن تعمل . . فإذا عملت وأخذت أجرك فهذا شىء طبيعى لا يثير فى نفسك العجب . . وأنت حينما تريد أن تسافر إلى مكان ، فإنك تذهب وتقوم باجراءاتك وتسافر . . شىء طبيعى تابع لقانون السببية . . وشىء تشترك فيه البشرية جميعا .

ولكن فى أحيان تجد أن قانون السببية لا يعمل . . يفتح الله لك بابا صغيرا . . لنرى منه قدرته وتحس بعظمته ، وبأن قانون الأسباب لا يقيد الله سبحانه وتعالى فيما يشاء . . وحينئذ حين تقف أمام قوى تقول كل الأسباب أنه سينتصر عليك . . ثم نجده ينهزم وينهار . . لا تملك إلا أن تصيح من أعماقك (ربنا كبير . . ربنا موجود) . . وحين يراد بك سوءا وتُحكَم أسبابه ، ثم يكشفه الله ويدفعه عنك . . فإنك فى هذه الحالة تصيح (ربنا كبير . . ربنا موجود) . . وحينما تكون فى عسرة من الرزق ، ثم يأتى الله سبحانه وتعالى ويفتح لك بابا للرزق من حيث لا تدرى ولا تعلم . . شىء لم تكن تتوقعه على الاطلاق . . إنسان يأتى إليك ويكفيك بعمل ويجزل لك العطاء . . حينئذ تصيح قائلا : (ربنا كبير . . ربنا موجود) .

وليست طلاقة القدرة وقفا على أحد دون الآخر ، بل فى حياة الناس جميعا فكلنا رأى طلاقة قدرة الله فى فترة من فترات حياته . . رأى طلاقة القدرة فى عدل الله أو رحمة الله . . أو شفاء من مرض يئس الأطباء من علاجه . . أو رزق جاء ليذهب حالة عسر وضنك . . لماذا ؟ لماذا يرينا الله طلاقة القدرة فى الدنيا حتى لا ييأس المؤمن أبدا . . فإذا توقفت الأسباب عن العطاء ، فإن الله سبحانه وتعالى يفتح بابا من أبواب رحمته . . ومن هنا فإن الإنسان المؤمن عندما تصل به الأسباب إلى طريق مسدود ، يرفع كفيه دائما إلى السماء ويقول : (يارب) . . ويعلم أن الطريق الذى سدته الأسباب . . تفتحه طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .

وفى القرآن الكريم يروى لنا الله سبحانه وتعالى أمثلة من طلاقة قدرته حتى نمضى فى الحياة بلا يأس . . فقصة هاجر عليها السلام فيها طلاقة قدره . . ذلك لأن إبراهيم أخذ هاجر وابنها إسماعيل إلى واد غير ذى زرع . . وعند الكعبة المشرفة تركها هى وابنها . . وارتاعت المرأة . . كيف يتركها وهى امرأة ضعيفة ومعها طفل رضيع فى مكان قفر لا زرع فيه ولا ماء .. ولا نبات ولا إنسان . . فسألته هاجر : هل تفعل ذلك يا إبراهيم بفكرك أنت أم أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أمرك بذلك . . فقال إبراهيم عليه السلام : بل الله أمرنى بذلك . . قالت هاجر بإيمان . . إذن لن يضيعنا .

وانطلق إبراهيم عائدا وترك الأم وطفلها الرضيع فى هذا المكان القفر . . هنا فى هذه البقعة كان قانون السببية معطلا فلا توجد أسباب للحياة . . لا يوجد ماء يشربونه ولا طعام يأكلونه . . ولا بشر يعينهما بأن يحضر لهما الطعام والثياب . . وهكذا تعطلت الأسباب . . وكنا إذا حكمنا قانون السببية فلابد أن نقول : أن الأم وطفلها هالكان لا محالة .

وحاولت هاجر أن تأخذ بقانون الأسباب . . فانطلقت تسعى بين الصفا والمروة . . تصعد على هذا التل . . وتصعد على ذلك التل . . عسى أن ترى إنسانا أو تشاهد طيرا أو تلمح من بعيد قافلة قادمة . . كان كل هدفها أن ترى سببا من أسباب الحياة تتمسك به هى وطفلها . . وقطعت المسافة سبع مرات بين الصفا والمروة . . تصعد إلى هذا التل . . ثم تصعد إلى ذلك التل فلم تجد شيئا . . ولم تجد أحدا . . ونال منها التعب . . فجلست بجوار وليدها . وإذا بالصغير الضعيف يضرب بكعبه الأرض فينفجر منها (بئر زمزم) وتدب الحياة فى المكان ويمتلىء بالماء . . هنا كانت طلاقة القدرة هى التى فجرت الماء . . وهى التى أعطت الحياة فى الوقت الذى تعطلت فيه الأسباب . .

وقصة موسى عليه السلام . . خافت أمه أن يذبحه فرعون ورجاله . . وكان

من الممكن أن تهاجر به سرا من مصر . . أو أن تذهب إلى مكان بعيد لا يراها فيه أحد . . أو أن تختفى به فى مغارة فى جبل . . كانت الأسباب تقول هذا . . وكانت هذه هى طريقة النجاة . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعل من قصة موسى مثلا على طلاقة القدرة . . فأوحى إلى أمه أن تلقيه فى الماء ليكون هذا هو السبيل لنجاته وحفظ حياته . . وأنت حين تضع شيئا فى صندوق وتلقيه فى الماء فإنما تريد أن يراه الناس جميعا . . فالواقف على الشاطىء إذا نظر إلى الماء رأى الصندوق . . فكأنما هذا اعلان لا اخفاء . . ومع ذلك جعل الله سبحانه وتعالى هذا الاعلام هو عين الاخفاء .

تثبيتا للمؤمنين

ولكن لماذا أعطانا الله هذه الأمثلة . . تثبيتا للمؤمنين على الإيمان وليس معنى هذا ألا نأخذ بقانون الأسباب ولا نعمل منتظرين طلاقة القدرة . . بل ان طلاقة القدرة لا تأتى إلا إذا استنفد الإنسان الأسباب أولا . . فإذا فرغ الإنسان من الأسباب ولم تعطه شيئا رفع يديه إلى السماء . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « **أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه** » . . والمضطر هنا هو الذى يستنفد أسباب الدنيا ولا يجد أمامه مخرجا . . وهذا هو الذى تتفتح أبواب السماء له ، على أن الله سبحانه وتعالى له اختبارات إيمانية . . فهو يختبر صبر العبد وقوة إيمانه وتحمله . . وهذه الاختبارات الإيمانية هى الأساس ليزيل الله الضيق ويذهب الهم ويفتح أبواب السماء .

والإيمان بالله هو إيمان كامل ، فلا يوجد شىء اسمه إيمان ناقص . ذلك أنك إذا أخذت من الإيمان شيئا فقد أخذت جوهره . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : « **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** » ذلك أن الإيمان هو الالتزام بمنهج الله . . والله سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين ألا يواجهوا حركة حياتهم إلا بالحق . . وساعة تؤمن بالله . . معنى ايمانك هى حيثية قبول الحكم منه . . فأنت مادمت آمنت أنه

الله .. القادر .. الحكيم .. الخالق .. فإنك تلتزم بما يطلب منك ، فإن لم تلتزم كان إيمانك بلا قيمة ولا وزن .. لماذا ؟

أنظر إلى قول الله سبحانه وتعالى : « **ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك .. ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما** » .. هذه الآية الكريمة التى نزلت فى اليهود إنما تبين لنا صفة من صفات الإيمان هى جوهره ، فالإيمان كالأمانة .. ليس هناك إنسان أمين وإنسان نصف أمين وإنسان ربع أمين .. بل إما أن يكون الإنسان أمينا .. أو لا أمانة له .. بصرف النظر عن قيمة ما سيأخذه أو ما سيغريه على التخلى عن الأمانة .. فيأتى الله سبحانه وتعالى بمثلين الأول هو القنطار .. والثانى هو « الدينار » كلاهما يمثل قيمة نقدية .. وفى نفس الوقت يضرب لنا مثلا إيمانيا .

الأول أعطيته قنطارا كأمانة .. كبر الحجم والقيمة يغريه بأن يأخذ هذه الأمانة لنفسه .. ولكن لأنه أمين لا يقترب منها ويحفظها لك .

والثانى أعطيته دينارا .. تفاهة القيمة تجعله لا يطمع فيها .. ولكنه يطمع فى الدينار ولا يرده إليك إلا إذا قاضيته وذهبت إلى القاضى وإلى المحكمة وأجبرته على أن يدفعه ..

إذن فالمسألة هنا ليست بالقيمة ولكن بالالتزام .. لا أستطيع أن أقول عن إنسان يسرق جنيها أنه أمين لأنه سرق جنيها فقط .. بل من يسرق جنيها فقد خان الأمانة .. كذلك الإيمان .. من لا يلتزم بجزء منه فقد انتفى عنه الايمان ..

لذلك نجد الله سبحانه وتعالى حينما يكلفه .. ينادى أولا ويقول : « **يا أيها الذين آمنوا عليكم** » كذا وكذا .. يعنى يا من آمنت بى إلها .. اسمع منى الحكم الذى أريده منك .. وأنا لا أطلب هذا الحكم من خلقى جميعا ولكن أطلبه من الذين آمنوا .. لذلك ينادى الحق سبحانه وتعالى : « **يأأيها الذين آمنوا** » .. فمن أوفى بعهده الإيمانى فعل .. ومن لم يوف بعهده الإيمانى فقد

خرج عن مناداة الله فى قوله سبحانه وتعالى : « **يا أيها الذين آمنوا** » . . وهكذا يكون الإيمان وفاء بالعهد والتزاما بما أمر به الله وتنفيذ مراد الله فى افعل ولا تفعل .

ولا تصدق أبدا أن إنسانا غير مؤمن يحبه الله سبحانه وتعالى . . بعض الناس لا يؤدى ما أمر به الله . . ثم بعد ذلك يأتى إليك ويقول إنه يحس بأن الله يحبه وأنه يحس أن الله يرعاه . . نقول هؤلاء جميعا . . لا تعيشوا على الوهم . . فالله سبحانه وتعالى لم يخبرنا بذلك . . بل قال : « **إنه يحب المتقين** » . .

ليس من أهلك

وإذا أردنا أن نضرب مثلا لذلك . . ولله المثل الأعلى :

نأتى إلى قصة نوح عليه السلام . . الحق سبحانه وتعالى وعد نوحا بأن ينجيه من الغرق وهو وأهله . . ثم فوجىء نوح بابنه يكفر ويرفض أن يصعد معه إلى السفينة ويقول : « **سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء** » . . ويرد نوح : « **لا عاصم اليوم من أمر الله** » . . ثم يحول بينهما الموج فيغرق الابن ويصاب نوح بذهول . .

لقد وعده الله بأن ينجيه هو وأهله . . ولكنه أغرق ابنه . . فهل وعد الله غير حق ؟

فيرفع نوح يديه إلى السماء ويقول : « **رب ان ابنى من أهلى وإن وعدك الحق** » . . أى ياربى ابنى هذا من أهلى الذين وعدتنى بأن تنجيهم معى ووعدك يا ربى الحق وأنت وعدت . . فيرد الله سبحانه وتعالى : « **إنه ليس من أهلك أنه عمل غير صالح** » . .

مامعنى هذا الكلام ؟ . . معناه أن الذاتية عند الله وصلات النسب والدم لا تنفع الإنسان ولا تؤهله لحب الله ورحمته . . ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لابنته فاطمة : (**يا فاطمة انى لن أغنى من الله شيئا**) . .

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما خاطب نوحا لم ينسب الابن لنوح .. ولكن نسب الابن إلى عمله .. فقال « انه عمل غير صالح » .. وأهل الأنبياء هم الذين على منهجهم .. هم الذين يتبعون المنهج .. ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. جاء بسلمان وهو فارسي وليس عربي الجنسية أو المولد .. وقال : (سلمان منا آل البيت) .. الذى نسب سلمان إلى آل بيت رسول الله هو عمله .. وليس قرابته أو صلة الدم أو أى شيء آخر .

ولعلى أذكر فى ذلك قصة كعب بن الأشرف .. دخل عليه جماعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون منه الطعام والكساء ، فقال لهم أتؤمنون بأن محمدا رسول الله .. وكان كعب كافرا .. أراد أن يعرف إن كانوا مؤمنين أو لا .. فقالوا له نعم نحن نؤمن بأن محمدا رسول الله .. فقال كعب لقد حرمتم أنفسكم من الخير .. كنت أريد أن أبركم وأن أكسوكم وأن أعطيكم الطعام ولكن بإيمانكم بمحمد حرمتم أنفسكم من خير كثير .. فمادمتم قد أعلنتم الايمان فلا طعام لكم عندى ولاشراب ولا كساء .

وجلس أفراد الجماعة يتداولون .. وقالوا نحرم أنفسنا من هذا الخير كله ؟ .. فعادوا إلى كعب وقالوا له دعنا فترة نراجع فيها أنفسنا لأنه ربما كان فى ملتنا شبهة .. فلما قالوا هذا الكلام أعطاهما الطعام والشراب والكسوة .. ولكن هؤلاء اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، فقد خرجوا على الإيمان ليحصلوا على الطعام والكسوة .. وهكذا كان خروجهم ولو لمجرد قولهم شبهة البعد عن الإيمان بالله .. ولكن هل هذا الكلام لا ينطبق على هؤلاء الناس وحدهم .. إنه ينطبق علينا جميعا ..

كل منا يزين للسلطان أو الحاكم فعلا من الأفعال التى لا يرضى عنها الله ليحصل على نفع شخصى ، فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا ..

كل من يعين إنسانا على باطل أو على ظلم أو يمضى به فى طريق غير طريق

الحق . . يزين له الطريق ويغريه فيه فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا . . كل من يشهد زورا أو يفعل باطلا أو يفعل شيئا دنيويا لا يرضى الله فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا . . وحتى تعمم القاعدة : كل من يجعل آية من آيات الله سلعة يبيعها أو يخالفها ليحصل على الثمن يعتبر داخلا فى النص .

لا خـــلاق لهم

ماذا يقول الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء ؟. يقول « **أولئك لا خلاق لهم** » . . وما هو الخلق . . الخلق أن توجد صفة من الإنسان تلتصق به حتى يصير يوصف بها . . فلان اتصف بالصدق . . معناه انه التصق بالصدق . . وفلان خلقه الكرم . . أى أصبح طبعه الكرم . . وفلان صفته السماحة إلى آخر ذلك . .

والله سبحانه وتعالى يقول : « **لا خلاق لهم** » . . أى لا صفة لهم فى الآخرة التى هى أساس التقييم الصحيح . . والتقييم الصحيح فى الوقت الذى لا يستطيع الإنسان أن يغير شيئا . . فى الوقت الذى هو مقهور فى كل شيء فمن لا خلاق له فى الدنيا يستطيع أن يعدل سلوكه وأن يغيره . . وربما بعد أن يعدل سلوكه يكون له نصيب . . أما من لا خلاق له فى الآخرة . . ولا يكلمهم الله ولا يزكيهم فهل يستطيع أن يفعل شيئا . . ذلك الذى خسر إيمانه .

ولذلك عندما يحاول الكافرون مخاطبة الله وهم فى النار . . يقول لهم الله سبحانه وتعالى : « **إخسأوا فيها ولا تكلمون** » وعندما تقرأ آيات الله حول الحساب والآخرة نجد أن الذين يستهينون بيوم القيامة هم الذين لا يؤمنون بالله . . ولكن المؤمنين يرتعدون من هول ذلك اليوم . . ومن حساب الله الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها « **ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا** » .

على أن الإيمان بالله يجعلك فى درجة عالية جدا . . بحيث عندما يحدثك الله

سبحانه وتعالى عن الغيبيات فكأنك ترى ما تقرأه يحدث أمامك . . والله سبحانه وتعالى يقول مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم : « **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل** » . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير رأى العين . . ولو أن الله سبحانه وتعالى قال ألم تعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . . لكان ذلك فى رأى بعض الناس تعبيرا أدق . . لأن محمدا عليه السلام مادام لم ير فإنه يكون قد علم من غيره . . فالعلم قد تحصل عليه باجتهادك الشخصى . . وقد تحصل عليه عن طريق غيرك سن البشر . . فأنت حين تدرس العلوم والتاريخ فى الجامعات فإنك تعلم ما علم غيرك ونقل إليك بواسطة الكتب . . ثم تضيف أنت علما بعد ذلك فتصبح إضافة يتعلمها غيرك من الناس الذين سيأتون بعدك . . إذن فاستخدام كلمة « ألم تعلم » بدلا من « ألم تر » كانت ستكون أدق بشريا .

لكن القرآن الكريم كلام الله لم يكتبه بشر . . والحديث فى قضية من قضايا الايمان بالنسبة لإنسان مؤمن بمثابة رؤية صادقة . . فإذا جاء من الله فهو رؤية يقينية . . ولأن القرآن يحدثنا عن غيبيات مما سيحدث فى الآخرة . . والإيمان أساسا إيمان بالغيب ، فإذا لم تكن متيقنا من أنك ستقابل فى الآخرة كل ما ذكره الله سبحانه وتعالى . . فإنه فى هذه الحالة يهتز إيمانك .

إن أساس اليقين البشرى فى الدنيا هو الرؤية بالعين . . وما دمت أراك أمامى فلا يوجد سؤال فى نفسى هل أنت موجود داخل الحجرة أم غير موجود . . ولا يثور حول ذلك جدل . . وإذا كنت أجلس وأتحدث مع زوجتى فلا أسأل نفسى أبدا هل هى موجودة فى البيت أم لا . . تلك بديهيات لا تدخل فى مجال المناقشة ويسلم بها كل إنسان .

ولعل الجدل الذى كان قائما حول كروية الأرض انتهى تماما حين صعد الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض على شكل كرة كبيرة هائلة . . وفى تلك

اللحظة توقف الجدل تماما لأن رؤية العين حولت القضية من جدل علمى إلى يقين بصرى وانتهى كل شىء ولا مجادلة .

وأنت فى قضية الإيمان تناقش كل شىء بعقلك وتبحث الأمور وتزنها .. فتقارن الحجة بالحجة إلى أن تهتدى للإيمان .. عند هذه النقطة يستقر الإيمان فى قلبك ولا يطفو مرة أخرى إلى العقل ليناقش من جديد .. فإن عاد مرة أخرى إلى العقل فإيمانك فى هذه الحالة إيمان ناقص .

فإذا آمنت إيمانا كاملا .. وأخبرك الله سبحانه وتعالى عن شىء فهو رؤية يقينيةٌ فى نفسكْ .. تماما كالرؤية اليقينية التى تتم بالعين .. فإذا حدثك عن النار مثلا فكأنك تراها .. وإذا حدثك عن الجنة فهى يقين رؤية فى نفسك .. وإذا حدثك الله سبحانه وتعالى عن شىء مضى .. فهو يقين فى نفسك كأنك عشته .

إذن فالعملية هنا هى قضية إيمانية كبرى .. فالسماع من الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمؤمن يقينية .. فإذا قال الله سبحانه وتعالى : « ألم تر » فهى رؤية يقينية تماثل رؤية العين .. ولأن القرآن لا يتبدل ولا يتغير إلى يوم القيامة .. لذلك فإن المسائل المستقبليةفيه تظل مستقبلية .. فإذا قال الله سبحانه وتعالى : **« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »** .. فمعنى ذلك أن هذا الأمر سيظل أزليا .. بمعنى أن هذه الآية حين نزلت قرئت سنريهم .. ونحن الآن نقرأها سنريهم .. والذين سيأتون بعدنا سيقرأونها سنريهم .. وهكذا يريد الله لنا أن نعرف أن هناك عطاء جديدا لكل جيل من الله سبحانه وتعالى ، غير عطائه للجيل الذى قبله ... ولذلك فإن حرف « السين » فى القرآن يحمل إعجازا مستقبليا حتى يوم القيامة .

ولكن لماذا جاءت كلمة « ألم تر » فى سورة الفيل .. ولماذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون حادث الفيل هذا يقينا مثل يقين الرؤية . لأن هذا الحادث يمثل

طلاقة القدرة التى تعطى شعاع الإيمان وتطرد شعاع اليأس من نفس المؤمن .. فالحادث كما نعرفه أن أبرهه جاء بعدد ضخم من الأفيال ليهدم الكعبة .. وخرج سكان مكة إلى الجبال تاركين البيت لأنهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام أبرهه وأفياله وجنوده وجيشه الجرار ..

هنا حادث إيمانى هائل .. رجل استعان بجبروت الدنيا وهو أبرهه ليهدم بيت الله الحرام .. وقوة دنيوية أخرى وهم سكان مكة خافوا من جبروت الأرض وتركوا البيت .. حينئذ ماذا فعل الله سبحانه وتعالى .. لقد انطلق أهل مُكة إلى شعاب الجبال ، وتركوا الطريق خاليا بين جيش أبرهه الجبار وبين بيت الله الحرام .. ولم يكن أمام أبرهه إلا أن يمشى مسافة قصيرة بلا مقاومة ليهدم البيت .. وهكذا تخلى البشر عن قضية حق وهى حماية بيت الله الحرام ممن يريد أن يهدمه وابتعدوا جميعا .

هنا أراد الله سبحانه وتعالى أن يفجر قضية إيمانية كبرى وأن يريهم أن الجبار الذى يخشونه .. والجيش الجرار الذى يهابونه هو عند الله لا يساوى شيئا .. وأن صاحب الحق الضعيف يجب ألا يخاف من الباطل القوى .. ولذلك جاء الله سبحانه وتعالى بالطير .. تلك المخلوقات الضعيفة التى أن أمسكتها بيدك وضغطت عليها بقوة ماتت أو فقدت الحياة .. جاء الله سبحانه وتعالى بهذه المخلوقات الضعيفة .. وقال سأريكم أيها البشر أن أضعف مخلوقاتى سيهدم هذا الجيش الجبار ويمحقه .. وانطلقت الطير تحمل حجارة صغيرة فقضت على الفيلة الجبارة فى زمن قصير وحطمت الجيش تماما .. حدث هذا أمام أعين الناس وشهده الجميع .

والعجيب أن بعض العلماء لا يتقبل الآن أن طيرا صغيرا يهزم جيشا جبارا من الفيلة لجيش أبرهه .. فأخذ بعضهم يشكك فى الرؤية .. ويقول انها جراثيم هى التى قتلت جيش أبرهه وقضت عليه .. كأنما هى مسألة صعبة على الله

سبحانه وتعالى أن يرسل طيرا ضعيفا ليقضى على جيش من الأفيال القوية .. ولذلك فهم يريدون أن يسهلوها على الله سبحانه وتعالى .

ونقول لهؤلاء جميعا : أن الله سبحانه وتعالى ليس محتاجا إلى عون أو مساعدة .. وأن عام الفيل كان عام مولد رسول الله .. ورسول الله بعث فى الأربعين .. أى أنه كان هناك من هم فى سن الخامسة والخمسين والستين والخامسة والستين والسبعين ومن هم فوق ذلك .. هؤلاء جميعا رأوا عام الفيل رؤية العين .. فلو لم تأت هذه الطير .. ولو لم تلق بحجارة من سجيل ولو لم تجعل جيش أبرهه عصفا مأكولا لكان هؤلاء الناس قالوا إن ما يقوله محمد غير صحيح .. ولقد شهدنا عام الفيل ولم نر طيرا تأتى ولم نرها تفنى جيشا عظيما وفيلة جبارة بأحجار صغيرة .. ولكن أحدا من الكفار أو غير المؤمنين الذين كان يهمهم الطعن فى هذا الدين لم ينفوا هذه الواقعة وقت نزولها .. مع أنهم رأوها . وهذا دليل على أنها حدثت كما رويت فى القرآن الكريم .. ولعل هذا ينبهنا إلى الحكمة فى قوله تعالى : « ألم تر » .. لأنه وجد من بيننا الآن من يتشكك فى هذا الأمر .. فكان لابد أن يقول الله سبحانه وتعالى : « ألم تر » .. وكأنها جاءت ردا على هؤلاء الذين تشككوا فى الماضى والذين يتشككون الآن ..

التكليف .. وحركة الاختيار

والعبادة لله سبحانه وتعالى هى تكليف .. والتكليف إنما جاء ليضيق حركة الاختيار عند الإنسان .. افعل هذا .. ولا تفعل هذا .. والله قيد حركتنا حينما وضع المنهج بافعل ولا تفعل .. ولو أننا درسنا العلة فى تقييد حركة الإنسان لحمدنا الله سبحانه وتعالى على منهجه .. فما قال افعل كان الخير فيه .. وما قال لا تفعل كان الخير فى تركه .. فكأن التكاليف لو عقلها العاقل لعلم أن الله المعبود المكلف وضع لنا كل ما هو كريم فى الحياة وضمن لنا عدم التصادم مع الكون .. لأن الله يريد أن يوفر للإنسان المؤمن الحياة الطيبة الآمنة .. لذلك فهو يضع قواعد هذه الحياة .

قد يكون هذا شاقا على بعض النفوس .. ولكننا لو تأملنا لوجدنا المشقة ضئيلة جدا لتقى المجتمع من شرور رهيبة .. والله سبحانه وتعالى حين يمنعنى عن السرقة .. قد يحمينى من نزوة نفس .. ولكنه إذا أباح السرقة فقد أباح مالى للمجتمع كله .. وهو حين يحرم القتل ، ربما منعنى من نزوة انتقام .. ولكن تعالوا وانظروا إلى مجتمعات أبيحت فيها السرقة والقتل والنهب ـ كما يحدث الآن فى لبنان مثلا ـ أرأيت إنسانا آمنا على نفسه هناك .. أرأيت إنسانا يخرج من بيته فى الصباح ويعرف أنه سيعود إلى أولاده أو لا يعود .. أرأيت إنسانا آمنا على طعام اختزنه لساعة عسرة أو لإطعام أولاده الصغار .. أرأيت إنسانا يمشى فى الشارع يتلفت يمنة ويسرة لا يعرف من أين يأتيه الموت .. إنه مجتمع رهيب ..

ومنذ عدة سنوات انقطعت الكهرباء فى مدينة نيويورك بأمريكا عدة ساعات فارتكبت ألوف الجرائم من السرقة والاغتيال والنهب .. وقعت كل هذه الجرائم خلال خمس أو ست ساعات من الظلام .. انطلق المجتمع كله يقتل بعضه .. وينهب بعضه .. ويسرق بعضه .. ويفتك بعضه بالبعض الآخر ..

هذه تجربة حدثت فعلا فى مجتمع يوصف بأنه متقدم .. ولو ان انقطاع التيار الكهربائى هذا حدث فى بلد يطبق حدود الله كالسعودية مثلا حيث تقطع يد السارق .. لو أن التيار الكهربائى انقطع هناك عدة أيام لا عدة ساعات لما حدثت جريمة واحدة .. ولعاش كل طفل وامرأة وشيخ فى أمن وأمان .. ولتعاونوا جميعا على قضاء حوائجهم فى الظلام .. وهذا هو الفارق .. هذا هو الذى يريد الله سبحانه وتعالى أن يوفره لكل مؤمن .. يريد أو يوفر له الأمن والأمان والحياة الطيبة الكريمة .. وهذا لا يتأتى فى أى مجتمع لا يقيم حدود الله .. مهما قيل عن هذا المجتمع أنه متقدم .. ولن تجد فى مجتمع لا يقيم حدود الله حياة طيبة .. بل تجد الخوف يسيطر على كل إنسان .. كل متربص بالآخر .. وكل يحمل سلاحا ليدافع عن نفسه أو ليهاجم غيره .. هل عرفنا الآن بمثل حى قريب ما معنى تطبيق منهج الله .. وهل شهدنا كيف يتصادم

الإنسان مع الحياة إذا ابتعد عن هذا المنهج فينقلب الأمن إلى خوف والطمأنينة إلى ذعر .. والحياة الطيبة إلى حياة بائسة .

إذن فمن نعم الله علينا أنه وضع لنا منهج الحياة ولم يتركنا نضعه لأنفسنا .. ذلك لأنه لو تركنا نضع نحن المنهج لفسدت الدنيا .. ولاعتدى القوى على الضعيف ، وأخذ القادر حقوق غير القادر .. ومن نعم الله أيضا أنه رب كل شيء .. ومن هنا فان ما سخره الله لنا لا يستطيع أن يتمرد على أمر الله .. فالشمس والقمر والهواء والجبال والأرض .. كلها لا تستطيع أن تعصى أمر الله ، فى أن تخضع للإنسان .. وتخدمه ، وتفعل ما هى مسخرة له .. فلا الشمس مثلا تستطيع أن تقول انها لن تشرق اليوم أو غدا .. أو تستطيع أن تبتعد عن الأرض فتحولها إلى كتلة من الجليد .. أو تقترب منها فتحولها إلى مكان حار متلهب تنتهى فيه الحياة .. ولا يستطيع الهواء أن يقرر مثلا فى يوم من الأيام أن يترك سطح الأرض ويذهب بعيدا .. وتصبح الأرض بلا غلاف جوى الحياة فيها مستحيلة ، ولا يستطيع البحار والأنهار أن تجف .. ولا الجبال أن تزول وهى الرواسى التى تحفظ سطح الأرض وتوازنها .. كل هذا لا يمكن أن يتم لأن الله رب العالمين .. رب هذه المخلوقات كلها .. وكل هذه المخلوقات تخضع لأمر الله سبحانه وتعالى ..

ولو كان هناك أكثر من إله لفسدت الأرض لأن كل إله كان سيصدر أوامر مختلفة إلى ما خلق أو ما يسيطر عليه .. وكل ما سخره الله سبحانه وتعالى للبشر هو عالم مقهور لا اختيار له .. أو هو عالم كما سبق أن بيننا اختار أن يكون مقهورا لله على أن يأخذ الحرية فى افعل ولا تفعل ولذلك فقد يرى الكون الإنسان عاصيا لله .. وهذا تصادم بين كون يخضع خضوعا تاما لله وإنسان عاص .. ولكن رغم ذلك لا يستطيع هذا الكون أن يخرج عن تسخير الله له لخدمة الإنسان كافرا كان أو مؤمنا .

هذا فى الحياة الدنيا : أما فى الآخرة فإن كل هذه الأشياء المسخرة من الله

تشهد على الإنسان .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : « **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** » .. فيقولون « **أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء** » .. أى أن جوارح الإنسان هى خاضعة له بالتسخير فى الحياة الدنيا .. فإذا أمرها بمعصية تؤديها كارهة لأنها مسخرة لا تستطيع أن تعصى للإنسان أمرا .. فإذا جئنا إلى الآخرة وزال التسخير .. نطقت الأيدى والأرجل بما كان الإنسان يفعله من المعاصى .

رحمـة الخالـق

ولذلك يصور لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى رحمة الخالق بالإنسان وجحود الإنسان لربه :

« **قالت الأرض يارب إئذن لى أن أخسف بابن آدم الأرض فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وقالت السماء يارب لى إئذن لى أن أسقط كسفا على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وقالت الجبال يارب إئذن لى أخر على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك .. وقالت البحار يارب إئذن لى أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك** » .

إذن كل العوالم التى سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان .. ضجت من معصيته وتوجهت إلى الله سبحانه وتعالى طالبة الاذن أن تفنى بنى آدم من الوجود جزاء له على معصيته .. ويمضى الرسول الكريم مكملا . وهنا يقول الله سبحانه وتعالى : (**لو خلقتموه لرحمتموه دعونى وعبادى إن تابوا إلى فأنا حبيبهم . وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم**) ..

إذن هذه هى رحمة الله بخلقه تلك الرحمة التى جعلته يسخر لنا ما فى الكون .. ثم يمنع كل ما هو مسخر من أن يخرج عن طاعة الإنسان .. هذه هى

رحمة الله وصبره على عباده . . وعدم مواجهة الاساءة بالعقوبة . . وفتحه باب التوبة والمغفرة لكل نادم على معصية . وفتحه باب رحمته لكل عاص . . إن الله لا يأمر الأرض أن تهلك من فوقها بزلزال مدمر . . ولم يأمر المياه أن تغرق الأرض . . ولم يأمر السماء أن تسقط كسفا على الناس . . بل منع كل هذا برحمته . . وفتح باب التوبة والمغفرة ووضع لنا منهج الحياة . . ومع ذلك فنحن نعصاه .

ادراكات . . لا تستوعبها العقول

والله سبحانه وتعالى جعل لكل خلق من خلقه ادراكات . . ولكن ظنون الناس وعقولهم لا تتسع لهذا . . فكل خلق نراه أمامنا أو لا نراه يتفاهم مع خالقه . . مع أننا لا نستطيع أن نتفاهم مع بعضنا البعض . . ويريد البعض منا ألا يتفاهم مع منهج الله . . فالشمس لها حديث مع الله . . والأرض لها حديث مع الله . . والجبال لها حديث مع الله .

اقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

خطاب مع الله سبحانه وتعالى . . قول السماء والأرض وهى تناجى خالقها . . وهنا نتوقف قليلا . . هل يقال لشيء أو يقول الشيء إلا أن يكون هناك فهم من القائل . . وهل حديث الشمس أو الأرض الذى ورد فى القرآن الكريم ليكشف لنا ادراكات هذا الفهم الذى تعجز عقولنا عن فهمه . . الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه علم سليمان منطق الطير . . وأن سليمان فهم من النملة . . وأن الجبال يسبحن مع داود . . وعرفنا أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم كان يسمع تسبيح الحصى وهو فى يده .. والحصى يسبح سواء كان فى يد رسول الله أو بعيدا عن يده .. ولكن الله سبحانه وتعالى أفهم رسول الله لغة الحصى فسمع تسبيحه .. كما فهم سليمان عن النملة .. وجذع النخلة بكى حنينا إلى رسول الله .. إذن كلها عوالم لها ادراكات .. بل اننى أضيف لهذه العوالم عواطف .. مع أن العواطف مشهور عنها انها عند الإنسان فقط .

ولكن انظر إلى قول الله سبحانه وتعالى عندما يتحدث عن اخراج قوم فرعون عن مصر « **كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين** » .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى : « **فما بكت عليهم السماء والأرض** » .. إذن السماء والأرض لهما بكاء .. ومادامت السماء والأرض لم تبكيا على آل فرعون .. فإن لهما مناسبات تبكى فيها .. ولو أن السماء والأرض لا تبكيان على أحد لما كان الله سبحانه وتعالى يخبرنا بذلك .. ولكن قول الله تعالى : « **فما بكت عليهم السماء والأرض** » يدل على أنهما تبكيان .. وهما تبكيان العبد الصالح .. الأرض تبكى مكان سجود العبد المؤمن عليها .. والسماء تبكى مكان صعود دعاء العبد الصالح إليها .. فالمكان يصلى فيه الإنسان ويدعو ربه .. المكان الذى لم يشهده إلا على طاعة .. ولم يره فى معصية .. ينسجم مع هذا العبد الصالح ، ويأنس بجلوسه فيه .. فإذا فارقه الإنسان بالموت مثلا يحزن عليه ويبكى .. ولذلك قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه (إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان موضع فى الأرض وموضع فى السماء . أما موضع الأرض فهو مصلاه .. المكان الذى كان يسعد وهو يسمع الإنسان يصلى ويسبح مولاه .. أما الموضع فى السماء فهو مقعد عمله الطيب الذى يتقبل فيه دعاؤه) .

وهكذا نجد ان الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا أنه خلق انفعالات للأرض والسماء .. فإذا قالت الأرض شيئا .. أتقوله لى أم لمن خلقها .. تقوله طبعا لمن خلقها .. ولا يعز على من خلقها أن يتفاهم معها .. لأن الأشياء فى التكوين منفعلة للخالق .. والله سبحانه وتعالى يقول : « **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول**

له كن فيكون » . . وهكذا تصبح الكلمة وجودا . . وكل شيء فى الكون موجود

بكلمة « كن » . . وكل شيء منفعل لله سبحانه وتعالى . . لأنه وجد من الله قال له « كن » فتم الخلق . . ولا يحدث ذلك إلا إذا كان هناك فهم من هذا الشيء لأمر الله سبحانه وتعالى .

* * *

وكل شيء فى الدنيا والآخرة هو فى علم الله سبحانه وتعالى . . فالله لا زمن عنده ولا شيء يحجب المستقبل . . ولكن الزمن عندنا نحن .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ ﴾

(سورة الحديد)

إذن فالوجود كله فى علم الله سبحانه وتعالى . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء . . ولا يمكن أن يتم خلق شيء إلا إذا كان خالقه يعلمه ولا يجهله . . ولا يمكن أن يكون المخلوق قيدا على خالقه . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء . . ما خلق . . وما سيخلق . . وما سيتم إلى يوم القيامة . . فالله سبحانه وتعالى هو الذى يحدد . . فإذا أراد أن يخلق يوما مثلا مقداره أربع وعشرون ساعة . . قال له : « كن » فكان . . وإذا أراد أن يخلق يوما مقداره ألف سنة . . قال له : « كن » فكان . . وإذا أراد أن يخلق زمنا للناس قال له : « كن » فكان . . ومن صفات مخلوقيته عز وجل أنه يخلق الماضى والحاضر والمستقبل . . ولقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا بذلك فى القرآن

الكريم .. فمزق لنا حجب المستقبل فقال تعالى : « **ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد** » .

ولقد نزلت هذه الآية عندما قام الفرس بحرب الروم وهزموهم .. وكان الروم يعتنقون المسيحية .. والفرس كفرة لا يؤمنون بالله . وفرح المشركون بهزيمة الروم لأنهم يناصرون أهل الكفر وهم الفرس .. ونزلت الآية الكريمة بأن الروم سيغلبون فى بضع سنين .

والسؤال هنا أنه لو كان هذا القرآن من عند غير الله .. لما غامر أبدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كلام لا يتبدل ولا يتغير .. متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة .. يعلن ويؤكد نتيجة معركة حربية ستحدث بعد بضع سنين بين دولتين .. لأن هذا يعرض قضية الإيمان كلها للخطر .. فماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الروم والفرس تصالحا ولم يتقاتلا .. أو أنه بدأت معركة هزم فيها الروم مرة أخرى .. ومن الذى يستطيع أن يتنبأ بنتيجة معركة حربية ستقوم بعد ثمانى سنوات ويحدد الغالب فيها مع أن أحدا لم يطلب منه ذلك .

ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحدد .. وهو الذى يخلق النصر والهزيمة .. وكل ما سيحدث فى علمه .. جاء القرآن يتحدث ويمزق حجاب المستقبل .. الذى لا يستطيع أن يمزقه أحد .. ويعلن نتيجة معركة حربية ، ويعلن من المنتصر .. ويعلنها بثقة تامة .. وتمر السنون وتحدث المعركة كما تنبأ القرآن تماما .

علم الله حتى يوم القيامة وما بعد يوم القيامة .. وإذا كان القرآن قد مزق الحجب .. وأتى بمعجزات لاتزال تتضح كل يوم .. فإنه قد أتى بذلك ليفيق عقل البشر .. فيعرفوا يقينا أن القرآن منزل من عند الله فيتبعوه .. ولكن « **إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** » .



حديث قدسـى

عن أبى ذر رضى الله عنه .. عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن الله تبارك وتعالى انه قال :

يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى .. وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا .. يا عبادى .. كلكم ضال إلا من هديته .. فاستهدونى أهدكم .. يا عبادى ، كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم .. يا عبادى كلكم عار .. إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم .. يا عبادى .. انكم تخطئون بالليل والنهار .. وأنا أغفر الذنوب جميعا .. فاستغفرونى اغفر لكم .. يا عبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى .. ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم .. ما زاد ذلك فى ملكى شيئا .. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم .. كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا .. يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته .. ما نقص ذلك مما عندى .. إلا كما ينقص المخيط .. إذا ادخل فى البحر .. يا عبادى .. إنما هى أعمالكم أحصيها لكم .. ثم أوفيكم اياها .. فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك .. فلا يلومن إلا نفسه » .

الفصل السابع

البداية من باب الرحمة

حين نبدأ باسم الله .. فاننا نبدأ العمل ومعنا قدرة الله سبحانه وتعالى تعيننا على العمل .. والفعل عادة يحتاج إلى أكثر من صفة .. فإن كنت تريد عملا يحتاج إلى قوة .. تقول باسم القوى حتى تمدك صفة الله سبحانه وتعالى بالقوة .. وإذا أردت علما فانك تبدأ فى الاستعانة باسم الله العليم .. ليمدك الله من لدنه بالعلم .. وإذا كانت الحكمة هى مطلبك تقول باسم الله الحكيم .. وإذا كان ما تريد أن تستعين به هو القهر .. استعنت بالله القاهر .

إذن فأنت فى كل مرة تستعين باسم الله .. متخذا من صفاته سبحانه وتعالى ما يناسب العمل الذى تنوى القيام به .. ولكن الأعمال والأفعال لا تحتاج إلى صفة واحدة .. بل صفات كثيرة .. بل أن أتفه عمل يحتاج إلى أكثر من صفة .. بل إلى صفات متعددة .. ولا تعتقد أن هناك عملا يحتاج للقدرة وحدها .. وإنما يحتاج للعلم مع القدرة .. ويحتاج للحكمة .. ويحتاج إلى أشياء أخرى كثيرة .

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى .. بدلا من أن يثقل عليك صفات المجالات للفعل .. قال لك .. قل .. « **باسم الله** » .. لأن هذا الاسم يجمع كل الصفات ويعينك على كل الأمور .. فإذا قلت « **باسم الله** » .. فكأنك قلت باسم القوى .. وباسم القادر وباسم المهيمن .. وباسم الرحمن .. وباسم الرحيم .. وبكل الأسماء الحسنى .. لماذا ؟ .. لأنك اتيت باسم الذات الموصوفة بصفات الكمال .. ولقد اختلف عدد من العلماء حول « **بسم الله الرحمن الرحيم** » .. وهى موجودة فى ١١٤ آية من القرآن الكريم .. هل هى من آيات السور نفسها .. بمعنى أن كل سورة تبدأ « **باسم الله الرحمن الرحيم** » .. تحسب البداية على أساس أنها من آيات السورة .. أم أنها جاءت فى فاتحة الكتاب .. ثم بعد ذلك كفواصل بين السور .. ورجح بعض العلماء أن « **باسم الله الرحمن الرحيم** » آية من آيات القرآن الكريم ولكنها ليست آية من السورة نفسها .. ولهذا السبب فإنك تسمع بعض الأئمة حين يقيم الصلاة

ويقرأ الفاتحة . . يقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » فى سره . . ثم بعد ذلك يبدأ بـ« **الحمد لله رب العالمين** » ويستكمل قراءة الفاتحة . .

وفاتحة الكتاب هى قسمة بين الله وبين العبد . . الله سبحانه يقول فى حديث قدسى :
(قسمت الصلاة بينى وبين عبدى) ويعنى بالصلاة فاتحة الكتاب ـ بدليل التفسير الذى جاء بعدها . . وكون الله سبحانه وتعالى لم يقل فى حديثه القدسى قسمت الفاتحة بينى وبين عبدى . . ولكنه قال قسمت الصلاة بينى وبين عبدى . . وذلك يدل على أن فاتحة الكتاب هى جوهر الصلاة . . والفاتحة قسمهاالله سبحانه وتعالى إلى نصفين . . نصف له جل جلاله . . ونصف لعبده . . أما الذى لله سبحانه وتعالى فثلاث آيات هى « **الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين** » . . والآيات التى هى للعبد « **إهدانا الصراط المستقيم . . صراط الـذين أنعمت عليهم غـير المغضـوب عليهم ولا الضالين** » . . وهنا نلاحظ أن «**الرحمن الرحيم** » جاءت بعد « **بسم الله الرحمن الرحيم** » فأنت حين تقرأ الفاتحة تقول « **بسم الله الرحمن الرحيم** » . . ثم بعد ذلك تقول . . « **الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم** » . . فكأن « **بسم الله الرحمن الرحيم** » الأولى التى قلتها إنما هى بداية للعمل . . والعمل يتم للوصول إلى غاية ونتيجة . . فإذا بدأت « **بسم الله الرحمن الرحيم** » . . مستعينا بالله سبحانه وتعالى وبقدرته . . متجها إلى الله سبحانه وتعالى طالبا رحمته وغفرانه . . فلا يؤاخذك بما فعلت فى الماضى . . وينزل رحمته عليك لتبدأ العمل الذى تنوى القيام به .

فإذا أنعم الحق تبارك وتعالى عليك باتمام العمل . . فماذا تكون النتيجة الطبيعية لذلك ؟ . . هو أن تقول « **الحمد لله رب العالمين** » . . ثم بعد ذلك تعود فتقول « **الرحمن الرحيم** » . . شاكرا لله سبحانه وتعالى رحمته التى أمدك بها سواء توفيقا أو إعانة . . ثم بعد ذلك تمضى فتقول « **مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين** » . .

وقد قال رب العزة جل جلاله . . قسمت الصلاة بيني وبين عبدى . . ثلاث لى . . وثلاث له . . فإذا قال « **الحمد لله رب العالمين** » قال الحق حمدنى عبدى . . وإذا قال « **الرحمن الرحيم** » . . قال الحق اثنى على عبدى . . وإذا قال « **مالك يوم الدين** » . . قال الحق مجدنى عبدى . . وإذا قال « **ايك نعبد واياك نستعين** » . . قال الحق تبارك وتعالى هذه لى وله . . منه العبادة ومنى العون ولعبدى ما سأل . . والثلاث التالية « **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » يقوله الحق سبحانه وتعالى . . يكون لعبدى ما سأل . .

والحق تبارك وتعالى بدأ الحديث القدسى بقوله « **الحمد لله** » . . ولم يقل سبحانه وتعالى إذا قال العبد « **بسم الله الرحمن الرحيم** » أجبته بكذا . . ولكنه جل جلاله بدأ حديثه القدسى بقوله إذا قال العبد « **الحمد لله** » . . وبذلك دل على أن فاتحة الكتاب شىء والتسمية الاستهلالية شىء آخر . . فالتسمية الاستهلالية من القرآن وليست من نص السور . . لأن الله سبحانه وتعالى حين قال قسمت الصلاة بينى وبين عبدى . . لم يبدأ الفاتحة بقوله تعالى « **بسم الله الرحمن الرحيم** » . . ولكنه قال تعالى الحمد لله . . ولذلك تقول « **بسم الله الرحمن الرحيم** » فى الصلاة سرا .

ويريد الحق تبارك وتعالى بالتسمية الاستهلالية « **بسم الله الرحمن الرحيم** » أن يذكرنا دائما أننا ندخل عليه من باب الرحمة . . أكثر من أن ندخل عليه من باب العمل . . والإنسان خلق خطاء . . والإنسان خلق ظلوما . . وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله الا أن يتغمده الله برحمته**) . . قيل حتى أنت يا رسول الله . . قال عليه الصلاة والسلام حتى أنا . .

وأنت إذا استعنت بالله . . فانك تستعيذ برحمة الله سبحانه وتعالى . . لأنك لو لم تستعذ بعدل الله الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . . ولولا رحمة

الله ما بقيت لنا نعمة . . ولو يؤاخذ الله الناس بذنوبهم . . ما أبقى على ظهرها من دابة . . وأنت لو لم تستعذ بالله . . لما وجدت سبيلا إلى جنته . . فذنوب الإنسان فى الدنيا ومعاصيه لا تحصى ولا تعد . . إذا تكلم فقد ينم . . وإذا حكم فقد يظلم . . وإذا ظن فقد يسىء . . وإذا تحدث فقد يخطىء . . وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق . . هذه أشياء يرتكبها كل واحد منا مئات المرات . . وبدرجات متفاوتة . . فما من إنسان لم يصدر عنه فى يوم من الأيام كلمة تحمل معنى النم . . ولو مرة . . ولم يصدر عنه حكم بعيد عن الصدق فى أى أمر من أمور الحياة وجانبه الحق . . ومن منا لم يسىء الظن بإنسان كل يوم . . ومن منا لا يخطىء الحديث ولا يبتعد عن الحق ولو خطوة واحدة . . ومن منا ذلك الذى يستطيع أن ينسب الكمال لنفسه . . وأن يخلص هذه النفس عن هواها . . وأن يبعدها بعدا كاملا عن كل خطيئة . . منذا الذى يستطيع أن يدعى أنه منذ أن يستيقظ حتى ينام . . لم يخطىء خطأ . . ولم يرتكب إثما ولو صغيرا . . ولم يهدر حقا لإنسان . .

إن الذين يبذلون أقصى جهدهم فى الطاعة لله . . لا يصلون إلى مرتبة الكمال . . فالكمال لله وحده . . ورسول الله صلى عليه وسلم يقول (كل بنى آدم خطاء . . وخير الخطائين التوابون) . . والله سبحانه وتعالى يصف الإنسان فيقول « **إن الإنسان لظلوم كفار** » . . والشيطان يحاول أن يقعد بالإنسان عن الصراط المستقيم . . وأن يمنعه عن طاعة الله .

ولذلك كان لابد من باب الرحمة يدخل منه البشر إلى الله سبحانه وتعالى . . وان يكون هذا الباب مفتوحا على مصراعيه . . يهرع إليه كل عاص ليقول يارب عدت إليك وأنا نادم على ما فعلت . . فتقبلنى . . حتى أن عددا من كبار الزاهدين والمتقربين إلى الله . ربما ارتكب فى بداية حياته بابا من أبواب المعصية ثم تاب إلى الله فتقبل توبته . . وحسن اسلامه . . وإذا نظرنا إلى بداية الاسلام نجد أن رجالا ونساء من الذين حاربوا هذا الدين فى أوله . . قد حسن إسلامهم . . ووضعوا فى الاسلام ليصيروا عونا ونصرا لدين الله بعد أن كانوا

حربا عليه .. وغفر الله سبحانه وتعالى لهم ما ارتكبوه فى أيام الجاهلية .. وفتح لهم أبواب رحمته ورضاه ليصبحوا من أئمة هذا الدين .

ولكن لماذا قال الله « بسم الله الرحمن الرحيم » .. ولماذا قرن اسمه بالرحمن الرحيم .. حتى إذا قلت لأى عاص ابدأ عملك باسم الله يقول لك لقد صنعت كذا وكذا .. وأنا أستحى أن استعين بالله بعد أن عصيته وأغضبته .. تقول له أن الله سبحانه وتعالى علم ذلك أزلاً .. ففتح الباب لكل عاص يريد أن يتوب إليه ويستعين به .. فقرن اسمه جل جلاله بالرحمن الرحيم .. حتى تتذكر أنك لو كنت ارتكبت معصية فان الباب مفتوح .. ولو قلت انى قد عصيت الله نقول لك إن ذلك لا يمنع من الاستعانة بالله لأنه رحمن .. ولأنه رحيم .. ولا تمنعك معصية من أن تستعين باسم الله فى كل عمل .. لأنها الطريق إلى التوبة .. وإلى الإيمان .. الله سبحانه وتعالى يطلب منك أن تستعين به فى كل أمر من أمور الدنيا .. وأنت إذا استعنت باسم الله الجامع لكل صفات الكمال أعانك .. فإن كنت عاصيا .. فلا تعتقد أن الله قد طردك من رحمته .. أو يتخلى عنك إذا رفعت يدك إلى السماء واستعنت به .. أو قد غضب عليك حتى أنه لا يستجيب لك عندما تستعين به .. إنه سبحانه وتعالى يطلب منك أن تستعين به .. ولذلك فقد وضع لك صفة الرحمن الرحيم .. حتى نتذكر أن بابه مفتوح دائما .. وكما قلت أنه لولا رحمة الله ورحمانيته لما بقيت لنا نعمة .

* * *

إذن فنحن نعيش معاصينا فى مجال جلالات الرحمن وجلالات الرحيم .. ولذلك حينما يأتى الحق تبارك وتعالى ويعرض نعمه على الخلق .. ثم يعرض بعد ذلك ما فعل الإنسان بهذه النعم يقول « **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** » .. ولقد جاءت هذه الآية الكريمة فى القرآن الكريم مرتين .. مرة فى قوله تعالى « **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها أن الله لغفور رحيم** » .. والآية الثانية يقول « **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** » .. سياق الآية

الأولى تجليات الرحمة . . وسياق الآية الثانية جبروت الإنسان العاصي يأخذ نعمة الله ويستغلها فى معصيته . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى « **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار** » . .

وعندما يقول الحق جل جلاله وهو يعدد نعمة غفور رحيم . . قال ذلك لأن النعمة تقتضى ثلاثة عناصر . . عنصر هو المنعم . . وعنصر ثان وهو المنعم عليه . . وعنصر ثالث وهو النعمة . . وفى حديث النعمة نجد أن الله استخدم حرف (ان) ـ وهو حرف شرط ـ ولكنها تستعمل فى المشكوك فيه . . بينما (اذا) حرف شرط تستعمل فى المحقق . . شىء محقق تريد أن تتحدث عنه تستخدم (اذا) فإن قلت ان حدث هذا . . فأنت تشك فى أنه سيحدث . . ولكنك إذا قلت إذا حدث هذا . . فإنك تعرف أنه سيحدث . .

ولقد استخدم الله (ان) بلهجة التشكيك فقال : « **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها** » . . لأنه أراد أن يقول لنا أنه ما من بشر سيقبل على عد نعم الله . . انه يخاطبنا بلهجة الشك لأن هناك شكا فى أن يقبل أحد على عد نعم الله . . ولم نسمع حتى الآن عن انسان جاء بسجل وبدأ يحصى فيه نعم الله سبحانه وتعالى . . لماذا لأن الاقبال على احصاء يكون على شىء تستطيع أن تحصيه . . فمثلا فى مراكز الاحصاء تحصى عدد البشر كل عام . . لأنها تستطيع أن تقوم بالاحصاء . . وتحصى عدد المنازل والشقق والانتاج الزراعى والحيوانى وغيره . . أما الذى لا تستطيع أن تحصيه فهل تقبل على احصائه . . ؟ هل سمعت عن مركز للاحصاء قام باحصاء الذرات الموجودة فى الأرض من الرمال . . لم نسمع عن هذا طبعا . . لماذا ؟ . . لأنه لا أحد يستطيع . . وبالتالى مادام يظن أن هذا غير ممكن فإنه لا يقبل عليه . . ونعم الله لا تعد ولا تحصى . . ولم نسمع رغم تقدم آلات الاحصاء بالعقول الالكترونية وغيرها التى جعلت عددا من الاحصاءات غير الممكنة فى الماضى سهلة الحدوث الآن . . لم نسمع أن مؤسسة أو هيئة قامت باحصاء نعم الله على الإنسان فى الأرض . . لماذا ؟ . . لأنه من

المستحيل ذلك .. فشهيق الهواء الذى يدخل الصدر نعمة .. ان هو لم يدخل فقد الإنسان حياته .. وزفير الهواء الذى يخرج من الصدر نعمة .. إن لم يخرج من الصدر فقد الإنسان حياته .. وشعاع الضوء الذى ينعكس على العين نعمة .. لأنه ينعكس على العين ويمكنها من الرؤية والعين حين تستقبل شعاع الضوء وتعكسه لترى نعمة .. الخطوة الواحدة نعمة .. وحركة أصبعك نعمة .. وان تبتلع ريقك نعمة .. وان ينبض قلبك نعمة .. وان يتحرك لسانك بالكلام نعمة .

* * *

كل هذه وملايين غيرها نعم .. ونعم كبيرة على كل فرد فينا .. والإنسان لا يحس بالنعمة .. لماذا ؟ لأنه كما قلنا يعتاد عليها ويألفها .. فيعتقد أنها حق مكتسب له وينسى المنعم .. ان كل إنسان على وجه هذه الأرض يسبغ الله عليه بملايين النعم .. وان لم يعطه شيئا جديدا يحس به .. فعندما يكون نائما ويستيقظ فقد عادت إليه نعمة الحياة .. وإذا قام من سريره فهذه نعمة الحركة .. وكل حركة فى حياة الإنسان نعمة .. ولكن بعض الناس لا يتنبه إلى نعم الله ينعم بها وهو جاحد .. ومهما تعددت وسائل الاحصاء وتطورت فإنها ستظل عاجزة .. وسيظل الإنسان عاجزا عن احصاء نعم الله .. ولو أراد أن يستطيع .

واستمرار النعمة دليل على أن المنعم غفور رحيم .. ومن رحمة الله -أنه لا يعطى النعمة للشاكرين وحدهم .. أو للمؤمنين وحدهم .. ومن رحمته أنه لا يحرم من يعصيه من نعمه .. ولو لم يكن الله رحمانا رحيما وغفورا رحيما لمنع نعمه عمن عصاه .. وهنا يستوجب الله الحمد على كل النعم .. وقد بدأت الفاتحة وهى أم الكتاب بالآية الكريمة « **الحمد لله رب العالمين** » وأسباب الحمد فى الكون كثيرة .. فآيات الله فى الكون كله .. فى لؤلؤة بديعة التكوين .. فى زهرة يملؤها العبير وتختلط فيها الألوان .. عطاءات الله كثيرة تستحق الحمد .. والحمد يأتى أيضا خوفا من العقاب .. فأنا موجود تحت سيطرة الخالق .. فإذا ارتكبت خطأ كان فى استطاعته أن يبطش بى على الفور .. فأين أنا من قدرة

الله . . ؟ وما هى قوتى أمام قوته سبحانه . . ؟ إذا أراد سبحانه وتعالى أن يهلك الكون كله لاستطاع فى لحظة . . وأنا أبطش تغرنى قوتى . . وأنسى الله فى ساعات يسرى . . آخذ المال الذى أعطانى اياه واستعمله فى معصيته . . والصحة التى منحها لى الله فاستعملها فى الايذاء أو فيما لا يرضيه . . وأمضى فى الدنيا أحاول أن آخذ منها كل ما استطيع . . وليس فيها ما يؤخذ لأنى تاركه جميعا . . يقصدنى الخلق لأزيل ظلما فامتنع . . أو افعل خيرا فتأخذنى العزة بالاثم . . ويطلب منى أن أسعى فى معروف فارفض . . أملأ الدنيا بالنميمة والحقد وارتكب الذنوب والمعاصى . . وأبحث عن الأمان فى جاه الدنيا . . ولا أمان إلا فى وجه الله . . ثم تأتى أيام يملؤها العسر والشدة . . واتطلع إلى السماء وأصيح يارب . . وكان عدلا ألا تجاب نفسى ملأتها الخطايا واستغرقتها الحياة الدنيا . . ولكن الله يفتح بابه ويمد يده . . ويمسح الشقاء ويزيل الهم . . لأنه قدم الرحمة على البطش وقدم العفو والمغفرة على العقاب .

* * *

نعم متكررة

وفى كل يوم يموت الألوف . . ويهبنا الله نعمة الحياة والبقاء فى الوجود . . وعندما أفتح عينى فى الصباح . . لابد أن أقول الحمد لله لأنه منحنى نعمة الحياة والوجود . . وفى كل يوم تقع مئات الحوادث ويزول ثوب العافية عن الألوف من البشر . . وتحدث الكوارث ويكون ضحاياها الألوف من الناس فى العالم . . فإذا قمت من النوم فلابد أن أنطق بالحمد لله . . وإذا مضى اليوم ولم يزل الله عنى ثوب العافية فلابد أن أصيح من أعماقى الحمد لله . . والله نجانى من حوادث اليوم وشروره . . وسترنى وأنا مذنب . . وأعطانى وأنا غير مستحق للعطاء . . وفتح لى طريقا مغلقا أو أزال من طريقى إنسانا يضايقنى . . أو عرفنى ما لم أكن أعرفه . . ألا يستحق هذا منى أن أقول الحمد لله . . اننى لو قضيت يومى كله أعد نعم الله على ما أعطانى ووهبنى . . وما منعه عنى ونجانى لكان اليوم كله لا يكفى حمدا لله .

ورحمة من الله سبحانه وتعالى بالعالمين جعل الشكر له والحمد فى كلمتين « **الحمد لله** » .. والعجيب أنك إذا حاولت أن تشكر بشرا على جميل أسداه إليك ـ فتبقى ساعات وساعات تلهج بالشكر والثناء .. وتعيش ساعاتك بل وأيامك قبل لقائك لهذا الشخص تعد الكلمات وتختار العبارات .. تضيف وتحذف وتسأل الناس رأيهم علك تصل إلى قصيدة أو خطاب يلهج بالشكر لهذا الإنسان على عمل طيب واحد قدمه إليك .. ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمنا عسى أن يعرف البشر مدى النعم وقدرة المنعم .. فيحس فى داخل قلبه بعظمةالله .. ويوفى البشر حقهم فى الشكر دون ذلة تدنى النفس .. أو مبالغة تصيب الإنسان بالغرور .. أو نفاق يرتكب به البشر المعاصى .. ان الله يعطى بغير حساب وينعم على كل المخلوقات يكتفى بكلمتى « **الحمد لله** » يضعهما فى أول كتابه فاتحة الكتاب ـ ويضعهما خاتمة لكل حياة مؤمنة فى الأرض فيقول تعالى « **وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** » .

ولو أن الله تبارك وتعالى ترك صيغة الحمد دون أن يحددها لكان من الصعب على العقل البشرى أن يجد الصيغة المناسبة ليحمد هذا الكمال الالهى .. ومهما أوتى البشر من بلاغة وقدرة فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى ما يفى الله حق قدره ويكون شكرا على نعمه .. فكيف نحمد الله والعقل البشرى عاجز عن ادراك قدرته .. والعقل البشرى مغرور بما يسره الله له فى الدنيا من علم .. وكيف نحمد الله والكلمات تعجز عن التعبير عن الحمد لله .. مصداقا لقوله تعالى « **وما قدروا الله حق قدره** » .. وإذا كان البشر عاجزين عن أن يفوا للقدرة الالهية بالتقدير .. فكيف يستطيعون أن يفوا لها بالحمد .. وكيف يمكن للمخلوق المحدود أن يحمد الكمال الالهى .. ولذلك علمنا الله سبحانه وتعالى فى فاتحة الكتاب كيف نحمده ..

والمساواة بين البشر جميعا فى توحيد « **الحمد لله** » .. فيها يسر منهج الله ورحمته بعباده .. ولو أن الله سبحانه وتعالى تركها بلا تحديد .. لتفاوتت درجات

الحمد . . فهذا أمى لا يقرأ ولا يكتب يحمد الله بلفظ بسيط حسبما تستطيع فطرته . . وهذا عالم يحمد الله بما أتيح له من قدرات على البلاغة والتعبير . . ولكن شاء عدل الله أن يسوى بين عبيده جميعا فى صيغة الحمد ليعطى الفرصة المتساوية المتكافئة بين المتعلم والأمى من عبيده .

* * *

وإذا نظرنا إلى النعمة أولا قبل المنعم عليه . . لوجدنا أن الإنسان حين يأتى إلى الأرض . . وقبل ميلاده . . يقدر الله سبحانه وتعالى سبل حياته ورزقه وعمره . . وهل هو شقى أم سعيد . . وكل النعم التى سينعم بها عليه فى الدنيا . . وهكذا تسبق النعمة الوجود البشرى . . وحين ينزل الإنسان إلى الحياة تكون نعم الله سبحانه وتعالى قد سبقته . . فينزل الله من صدر أمه لبنا دافئا فى الشتاء باردا فى الصيف . . معقما من كل الأمراض بأكثر مما يستطيع العلم بكل قدراته أن يعقمه . . ويجد هذا اللبن جاهزا . . فإذا جاع نزل اللبن له . . وإذا شبع توقف نزوله حتى يجوع مرة أخرى . . معين من الغذاء لا ينضب إلا إذا استغنى الطفل عنه . . والطفل حين يولد ضعيفا عاجزا عن الدفاع عن نفسه . . ولكن الله يهيىء له أبويه ليحولا ضعفه إلى قوة . . فهمها لا ينامان حتى ينام . . وإذا مرض حملاه إلى الطبيب . . وإذا جاع وهو عاجز عن الكسب سخر له أبويه يسعيان فى سبيل رزقه . . وإذا حاول أحد الاعتداء عليه كان أبواه الدرع الواقية يفديانه بحياتهما ويحرمان نفسيهما من مباهج الحياة ليربياه ويعلماه . . حتى الذى يموت أبواه يهيىء الله سبحانه وتعالى من يكفله . . ويصبح أقوى الأقوياء فى العالم ضعيفا أمام ابنه الصغير . . وهكذا أوجد الله سبحانه وتعالى لهذا الضعيف النعم التى يحتاجها . . بل أوجدها له قبل أن يأتى إلى الدنيا . . فترى الأم تعد للابن ملابسه وسريره قبل أن يولد . . كل هذا والطفل لم يأت بعد إلى الدنيا . . وهو مازال فى بطن أمه . . وهكذا نرى أن النعمة تسبق الوجود البشرى . .

وإذا كان بعض الناس يقول أن الذى يوفر الحياة للبشر هم البشر . . بمعنى أن

أبا الطفل وأمه وعائلته هم الذين يعدون له سبل الحياة . . نقول أن هذه سنة الله فى الأرض . . فهو سبحانه قبل أن ينزل الإنسان إلى الأرض خلقها له . . وهيأ له ظروف الحياة فيها . . فالنعمة سبقت المنعم . . وآدم عليه السلام خلق بلا ماض . . فلم يكن له أبا يعد له أو أم تجهز من أجله . . ولكن سبقته النعمة فعاش فى جنة لا يجوع فيها ولا يشقى . . وهكذا كانت نعم الله سبحانه وتعالى تسبق آدم وتنتظر لتعطيه الحياة الطيبة التى لم يصنعها بشر . . ولكنها من صنع الله سبحانه وتعالى .

ومن يدعى أن النعم التى تسبق البشر هى من صنع الإنسان . . نقول له . . إن لبن الأم الذى يعتبر غذاء أساسيا للطفل . . ليس من صنع البشر ولكنه من صنع الله . . وحنان الأم والأب . . ليس من صنع بشر . . ولا يستطيع البشر أن يضع عاطفة قوية راسخة ولكنها من صنع الله .

* * *

والإنسان حين يقول الحمد لله . . فإنه يقطع بأن حمدا لابد أن يكون موجودا فى الكون . . لماذا ؟ . . لأن هناك أشياء يجدها الإنسان فى الكون تخضع له . . وتعطيه نعما بغير قدرة منه . . وبغير دخولها فى علمه . . فلا هو يستطيع أن يقدم لنفسه هذه النعم . . ولا هو يمكن أن يدخلها فى سيطرته . . فالإنسان خلق فوجد الكون مهيأ له . . الشمس تدفئه وتعطيه الحياة . . والأرض تطعمه وتعطيه الثمر . . والمطر ينزل عليه ليسقيه . . والهواء موجود إينما كان ليتنفسه بسهولة . . والنهار ليعمل وينتج والليل لينام ويستريح . . كل هذه الأشياء خلق الإنسان ليجدها فى الكون . . ألا تستحق الحمد . . ؟

إذن فنحن حين نقول الحمد لله . . فنحن نعلن أن هناك فى الكون أشياء يجب أن يتم الحمد عليها . . نعم كثيرة تجعل حياة الإنسان ممكنة وسهلة فى هذا الكون . . ولعل نعمة تسخير الكون للإنسان تقتضى وجود الحمد . .

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٣٢٦ / ٩٣

I. S. B. N

977 - 08 - 0179 - 8

حديث قدسي:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يقول ربنا عز وجل : « أنظروا فى صلاة عبدى .. أتمها أم انقصها ؟ .. فإن كانت تامة كتب له تامة .. وان كان نقص منها شيئا قال انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فإن كان له تطوع .. قال أتموا لعبدى فريضته من تطوعه ثم تؤخذ الأعمال » .